

عبد الرحمن الكواكبي

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد



تحقيق وتقديم

د. محمد عمارة

دار الشروق

طبائے الامتداد
ومصارع الامتداد

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٧
الطبعة الثانية ٢٠٠٩

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشارقة

٨ شارع سينويو المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

عبد الرحمن الكواكبي

طبائعي الاختصاص ومصاريح الاختصاص

تحقيق وتقديم

د. محمد عمارة

دار الشروق



عبدالرحمن الكواكبي

١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ

١٨٥٤ - ١٩٠٢ م

في لباس العلماء



عبدالرحمن الكواكبي

١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ

١٨٥٤ - ١٩٠٢ م

في لباس عرب البادية

المحتويات

١٢-٩	تقديم
١٨-١٥	تصدير
٢٢-١٩	مقدمة
٢٨-٢٣	ماهو الاستبداد؟
٤٣-٢٩	الاستبداد والدين
٥٠-٤٤	الاستبداد والعلم
٦٣-٥١	الاستبداد والمجد
٧٦-٦٤	الاستبداد والمال
٨٩-٧٧	الاستبداد والأخلاق
١٠١-٩٠	الاستبداد والتربية
١٢٥-١٠٢	الاستبداد والشرقي
١٤١-١٢٦	الاستبداد والتخلص منه

تقديم

الاستبداد هو: الانفراد بالسلطة والسلطان، في أى ميدان من ميادين السلطة والسلطان... فى الأسيرة... أو الديوان... أو الدولة والحكومة... أو فى المال والثروة... أو فى اتخاذ القرار... أو فى تنفيذ هذا القرار...

ولأن القرآن الكريم قد من للناس - فى اجتماعهم الإنسانى - سننا وقوانين لا تبديل لها ولا تحويل... سننا حاكمة للتقدم وللتخلف... للعدل وللجور... للنهوض والانحطاط... فلقد تحدثت آيات القرآن الكريم عن أن الانفراد بالسلطة والسلطان، والعدول عن المشاركة والاشتراك، هو السبيل المفضى إلى الطغيان... قطع بذلك القرآن الكريم، وأكدّه بأدوات التأكيد عندما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَىٰ (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (العلق: ٦، ٧).

ولقد ضرب القرآن الكريم الأمثال على صدق هذه السنة، وعموم هذا القانون، وعلى الآثار الكارثية لسيادة هذا الاستبداد فى حياة الأمم والشعوب والحضارات، ليدرك الناس أن النعمة كلها فى الشورى والمشاركة والاشتراك، وأن النقمة جميعها فى الاستئثار والاستبداد والطغيان...

﴿ففرعون، الذى اعتبر حكم مصر وخيراتنا له هو، وليس لشعبها، فقال: ﴿أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ (الزخرف: ٥١) قد قاده هذه الأثرة وهذا الاستبداد إلى الظلم والطغيان، الذى جعله يدعى الألوهية... ومن ثم يحتكر صناعة القرار: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ (القصص: ٣٨). ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر: ٢٩)...

ولقد كانت الكارثة هي عاقبة هذا الاستبداد الفرعوني . . تلك الكارثة التي لم تقف عند فرعون وحده، وإنما شملت مملأه والتخبة التي رضيت بهذا الاستبداد، وخنعت له، وشاركت فيه، وربطت مصيرها بمصيره، ومن ثم لم تتفرض عليه، كما صنع موسى وهارون - عليهما السلام - والسحرة الذين آمنوا برب هارون وموسى، ولم ترهبهم آلات التعذيب التي اصطنعها هذا الاستبداد ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجُودًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧١) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعْ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلِتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧٢) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٣) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٤) إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبِّهِ مُجْرِمًا فَإِنْ لَهُ جَهَنَّمُ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٥) جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَرَكَى ﴾ (طه: ٧٠-٧٦) . .

ولأن العواقب الكارثية للاستبداد لا تقف فقط عند المستبد، وإنما تشمل الذين رضوا أو خنعوا لهذا الاستبداد - وذلك انطلاقاً من السنة القرآنية: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ (الأنفال: ٢٥) - كانت عواقب الاستبداد الفرعوني شاملة للجميع . .

وحتى يعتبر الناس بهذه العواقب الكارثية للاستبداد، شاء الله - سبحانه وتعالى - أن يجعل من «بدن» فرعون - بعد غرقه - آية وعبرة باقية، ليعتبر بها حتى الذين لم يشاهدوا بعينهم عواقب هذا الاستبداد ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ (يونس: ٩٢) . .

* وفي مدرسة النبوة، التي صنع فيها الرسول - ﷺ - على عينه الجيل الفريد الذى أقام الدين وأسس الدولة على الشورى والمشاركة، كان درس الاستبداد الفرعوني حاضراً فى دراسة فلسفة التاريخ . .

يشهد على ذلك الحوار الذى دار بين الصحابى «حاطب بن أبى بلتعنة»

(٣٥ق هـ - ٣٠هـ ٥٨٦ - ٦٥٠م) - الذي حمل رسالة رسول الله - ﷺ - إلى «المقوقس» والشعب المصري . . فلقد ذكر حاطب المقوقس بالاستبداد الفرعوني ، وبعاقبة هذا الاستبداد ، كي لا يسلك ذات الطريق ، فيلقى ذات المصير . . فقال ملخصاً آفة الاستبداد وعاقبته في كلمات جامعة :

- «إنه قد كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى، فانتقم الله به ثم انتقم منه. فاعتبر بغيرك، ولا يُعتبر بك!»

* وفي مقابلة هذا النموذج الكارثي للاستبداد الفرعوني ، ضرب القرآن الكريم مثلاً للمشاركة والشورى والاشترك والحكم بواسطة المؤسسات الشورية ، ذلك الذي مارسه ملكة سبأ (بلقيس) عندما احتكمت - في اتخاذ القرار - إلى المؤسسة الشورية ، ولم يغرها التفويض الذي منحه إياها هذه المؤسسة : ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون﴾ (النمل : ٣٢) .

* وكما كانت العاقبة الكارثية للاستبداد الفرعوني بالرأى والقرار والتنفيذ . . كان الخسف عاقبة الاستبداد القاروني بالمال والثروة والسلطان المتولد عن احتكار الثراء : ﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَو لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَآكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَانُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيُكَانُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ

نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين» (القصص : ٧٦-٨٣) .

وإذا كان القرآن الكريم قد أفصح - في سورة - مكاناً واسعاً للقصص التاريخية - لتعلم منه العبر والعظات وفلسفة السنن الإلهية الحاكمة للاجتماع الإنساني عبر هذا التاريخ . - فإننا لا نغالي إذا قلنا :

« إن لعنة الاستبداد قد مثلت «أم الكبائر» على امتداد صفحات تاريخ الأمم والشعوب والحضارات . .

« وإن مجابهة هذه اللعنة - وهن بالوعي بالعواقب الكارثية لهذا الاستبداد . .
وأن نقول - أيضاً - :

« إن كتاب «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» الذي جادت به عبقرية الإمام الشهيد عبد الرحمن الكواكبي (١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ - ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م) هو أفضل ما يمكن أن تستنير به العقول والقلوب - إذا أردناه حقاً - محاربة الاستبداد، والنجاة من العواقب الكارثية لهذا الداء الويل . . . إنه كتاب فريد، لا نظير له في تراثنا القديم أو الحديث . .

تلك شهادة نقدم بها هذه الطبعة من «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» .
والله نسأل أن ينفع به . . إنه - سبحانه - خير مسئول وأكرم مجيب

٩ ربيع الأول ١٤٢٨ هـ

٢٨ مارس ٢٠٠٧ م

دكتور
محمد عمارة

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

"وهي كلمات حق، وصيحة في زاد..
إن ذهبت اليوم مع الريح.. لقد نذهب غدا بالأوناد؟!"

محررها هو
الرحالة ك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خالق الكون على نظام محكم متين ، والصلاة والسلام على أنبيائه
العظام هداة الأمم إلى الحق المبين ، لا سيما منهم علي النبي العربي الذي أرسله رحمة
للعالمين ، ليرقي بهم معاشا ومعادا على سلم الحكمة إلى عليين .

أقول ، وأنا مسلم عربي مضطر للاكتتام شأن الضعيف الصادع بالأمر ، المعلن
رأيه تحت سماء الشرق ، الراجي اكتفاء المطالعين بالقول عمن قال ، وتعرف الحق في
ذاته لا بالرجال : إنني في سنة ثمانى عشرة وثلاثمائة وألف هجرية ، هجرت ديارى
سرحا في الشرق ، فزرت مصر ، واتخذتها لى مركزا أرجع إليه ، مغتنما عهد الحرية
فيها على عهد عزيزها حضرة سنى عم النبي (العباس الثاني) ، الناشر لواء الأمن
على أكناف ملكه ، فوجدت أفكار سراة القوم في مصر كما هى في سائر الشرق
خائضة عباب البحث فى المسألة الكبرى ، أعنى المسألة الاجتماعية فى الشرق عموما
وفى المسلمين خصوصا ، إنما هم كسائر الباحثين ، كل يذهب مذهبا فى سبب
الانحطاط وفى ما هو الدواء . وحيث إنى قد تمحص عندى أن أصل هذا الداء هو
الاستبداد السياسى ، ودواؤه دفعه بالشورى الدستورية ، فقد استقر فكرى على ذلك .
كما أن لكل نيا مستقرا . بعد بحث ثلاثين عاما . بحثا أظنه كاد يشمل كل ما يخطر
على البال من سبب يتوهم فيه الباحث عند النظرة الأولى ، أنه ظفر بأصل الداء أو
بأهم أصوله ، ولكن لا يلبث أن يكشف له التدقيق أنه لم يظفر بشيء ، أو أن ذلك
فرع الأصل ، أو هو نتيجة لا وسيلة .

فالقائل مثلا : إن أصل الداء التهاون فى الدين ، لا يلبث أن يقف حائرا عندما
يسأل نفسه : لماذا تهاون الناس فى الدين ؟ والقائل : إن الداء اختلاف الآراء ، يقف

مبهوتا عند تعليل سبب الاختلاف . فإن قال : سببه الجهل ، يشكل عليه وجود الاختلاف بين العلماء بصورة أقوى وأشد . . وهكذا يجد نفسه في حلقة مفرغة لا مبدأ لها ، فيرجع إلى القول : هذا ما يريد الله بخلقه ، غير مكترث بمنازعة عقده ودينه له بأن الله حكيم عادل رحيم .

وإنى إراحة لفكر النظارين ، أعدهد لهم المباحث التي طالما أتعبت نفسي في تحليلها ، وخاطرت حتى بحياتي في درسها وتدقيقها ، وبذلك يعلمون أنني ما وافقت على الرأي القائل بأن أصل الداء هو الاستبداد السياسي إلا بعد عناء طويل يرجح أنني قد أضيت الغرض . وأرجو الله أن يجعل حسن نيتي شفيح سيئاتي ، وها هي ذي المباحث :

في زيارتي هذه لمصر ، نشرت في أشهر جرائدها^(١) بعض مقالات سياسية تحت عنوانات : الاستبداد ، ما هو الاستبداد ؟ وما تأثيره على الدين ؟ على العلم ؟ على التربية ؟ على الأخلاق ؟ على المجد ؟ على المال ؟ . . إلى غير ذلك .

ثم في زيارتي مصر ثانية أجبته تكليف بعض الشبيبة ، فوسعت تلك المباحث ، خصوصاً في الاجتماعيات ، كالترية والأخلاق . وأضفت إليها طرائق التخلص من الاستبداد ، ونشرت ذلك في كتاب سميته «طبايع الاستبداد ومصارع الاستعباد» وجعلته هدية منى للنشئة العربية المباركة الآية المعقودة آمال الأمة بمن نواصيهم . ولا غرور فلا شباب إلا بالشباب .

ثم في زيارتي هذه ، وهي الثالثة ، وجدت الكتاب قد نفذ في برهة قليلة ، فأحببت أن أعيد النظر فيه وأزیده زيدا مما درسته فضيظته ، أو ما اقتبسته وطبقته . وقد صرفت في هذا السبيل عمراً عزيزاً وعناء غير قليل . . وأنا لا أقصد في مباحثي طالما بعينه ولا حكومة أو أمة مخصصة ، إنما أردت بيان طبايع الاستبداد وما يفعل ، وتشخيص مصارع الاستعباد وما يقضيه ويمضيه على ذويه . . ولي هناك قصد آخر وهو التنبيه لمورد الداء الدفين ، عسى أن يعرف الذين قضوا تحببهم أنهم هم المتسبون لما حل بهم ، فلا يعتبون على الأغيار ولا على الأقدار ، إنما يعتبون على

(١) هي جريدة «المؤيد» لصاحبها الشيخ على يوسف .

الجهل وفقد الهمم والتواكل . . وعسى الذين فيهم بقية رقيق من الحياة يستدركون
شأنهم قبل المفات .

وقد تخيرت في الإنشاء أسلوب الاقتضاب ، وهو الأسلوب السهل المفيد الذي
يختاره كتاب سائر اللغات ، ابتعادا عن قيود التعقيد وسلاسل التفاصيل والتفريع .
هذا وإنى أخالف أولئك المؤلفين ، فلا أتمنى العفو عن الزلل ، إنما أقول .

هذا جهدي ، وللناقد الفاضل أن يأتي قومه بخير منه . فما أنا إلا فاتح باب صغير
من أسوار الاستبداد . عسى الزمان يوسعها ، والله ولي المهتدين .

١٩٠٢-١٣٢٠



مقدمة

لا خفاء في أن السياسة علم واسع جدا، يتفرع إلى فنون كثيرة ومباحث دقيقة شتى، وكلما يوجد إنسان يحيط بهذا العلم كما أنه قلما يوجد إنسان لا يبحث فيه.

وقد وجد في كل الأمم المتقدمة علماء سياسيون تكلموا في فنون السياسة ومباحثها استطرادا في مدونات الأديان أو الحقوق أو التاريخ أو الأخلاق أو الأدب. ولا نعرف للأقدمين كتباً مخصوصة في السياسة لغير الرومانيين الجمهوريين، وإنما لبعضهم مؤلفات سياسية أخلاقية (ككيلة ودمية)^(١) و(رسائل غوريغوريوس) ومحركات سياسية دينية (كنهج البلاغة)^(٢) و(كتاب الخراج)^(٣).

وأما في القرون المتوسطة فلا تؤثر أبحاث مفصلة في هذا الفن لغير علماء الإسلام، فهم ألفوا فيه ممزوجا بالأخلاق كالرازي^(٤) والطوسي^(٥)

(١) الجامع حكمة الهند، والذي ترجمه ابن المقفع من الفارسية إلى العربية. وهو أشهر من أن يعرف.

(٢) للإمام علي بن أبي طالب، جمعه من بطون الكتب وحواشيها: الشريف الرضي.

(٣) للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم. . . وهناك من كتب الخراج كذلك كتاب: يحيى بن آدم، وكتاب قدامة بن جعفر «الخراج وصناعة الكتابة» كما أن لابن رجب كتابا عنوانه «الامتخراج لأحكام الخراج».

(٤) الفخر الرازي، أبو الفضل محمد بن عمر (٥٤٤-٦٠٦ هـ = ١١٤٩-١٢٠٩ م) أحد علماء التفسير والكلام وتاريخ الفرق والأديان.

(٥) نصير الدين الطوسي (١٢٠١-١٢٧٣ م) أحد علماء الفلك والرياضة، ونسبته إلى مدينة «طوس».

والغزالي^(١١) والعلاني^(١٢)، وهي طريقة الفرس، ومزوجة بالآداب كالمعري^(١٣) والمتنبي^(١٤)، وهي طريقة العرب، ومزوجة بالتاريخ كابن خلدون^(١٥) وابن بطوطة،^(١٦) وهي طريقة المغاربة.

أما المتأخرون من أهل أوروبا ثم أميركا فقد توسعوا في هذا العلم وألفوا فيه كثيرا وأشبعوه تفصيلا حتى إنهم أفردوا بعض مباحثه في التأليف بمجلدات ضخمة، وقد ميزوا مباحثه إلى سياسة عمومية وسياسة خارجية وسياسة داخلية وسياسة إدارية وسياسة اقتصادية وسياسة حقوقية إلخ. وقسموا كلا منها إلى أبواب شتى وأصول وفروع.

وأما المتأخرون من الشرقيين فقد وجد من الترك كثيرون ألفوا في أكثر مباحثه تأليف مستقلة ومزوجة مثل أحمد جودت باشا^(١٧) وكمال بك^(١٨) وسليمان باشا^(١٩) وحسن فهمي باشا^(٢٠). والمؤلفون من العرب قليلون ومقلون، والذين يستحقون

(١) أبو حامد بن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥ هـ = ١٠٥٩-١١١٢ م) أحمد مشايخ علماء الإسلام.

(٢) علي بن الحسين بن عبد العالي الكركي (٨٦٨-٩٤٠ هـ = ١٤٦٣-١٥٣٤ م) ولد بسورية، وعاش بمصر والعراف زايران، ومارس السياسة والإدارة في الدولة الصفوية.

(٣) أبو انعم الفعري (٩٧٣-١٠٥٨ م) الشاعر والفيلسوف الأشعر.

(٤) أبو الطيب المسري (٩١٥-٩٦٥ م) الشاعر الفيلسوف المعروف.

(٥) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨ هـ = ١٣٣١-١٤٠٥ م) واضع فلسفة علم الاجتماع والتاريخ والعمران.

(٦) الرحالة المغربي محمد بن عبد القادر محمد بن إبراهيم اللواتي (١٣٠٤-١٣٧٨ م) صاحب «تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» الشهير برحلة ابن بطوطة.

(٧) محمد جودت باشا (١٨٢٢-١٨٩٥ هـ) مؤرخ وسياسي تركي، له مؤلفات عدة من بينها «تاريخ جودت» ويقع في اثني عشر مجلدا.

(٨) محمد صفي (١٨٤٠-١٨٨٨ م) إبيبي تركي، من أحرار الترك، أدى أدبه دورا بارزا في حباتهم القومية، وخص به صابري واثق «أول».

(٩) هو سليمان الساروتي (١٨٧٠-١٩٤٠ م) من الزعماء السباعيين المجاهدين، أصله من قطر إلى العرب، كان قائدا للسلطة العثمانية ومن أنصار القمصنة.

(١٠) من أحرار الترك الذين دخلوا ضد استبداد الدولة العثمانية.

الذكر منهم فيما نعلم رفاعه بك^(١)، وخير الدين باشا التوتسي^(٢) وأحمد فارس^(٣) وسليم البستاني^(٤) والمبعوث المدني^(٥).

ولكن يظهر لنا الآن أن المحررين السياسيين من العرب قد كثروا بدليل ما يظهر من منشوراتهم في الجرائد والمجلات في فواضع كثيرة. ولهذا لا ح لهذا العاخر أن أذكر حضوراتهم على لسان بعض الجرائد العربية بموضوع هو أهم لمباحث السياسة وقل من طرق بابه منهم إلى الآن فادعهم إلى ميدان المسابقة في حيز خدمة ينسرون بها أفكار أخوانهم الشرقيين وينبهونهم لا سيما العرب منهم لما هم عنه غافلون. فيفيدونهم بالبحث والتعليم وضرب الأمثال والتحليل: «ما داء الشرق؟ وما دواؤه؟».

ولما كان تعريف علم السياسة بأنه هو «إدارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة» يكون بالطبع أول مباحث السياسة وأهمها بحث «الاستبداد» أي التصرف في الشؤون المشتركة بمقتضى الهوى.

وإني أرى أن المتكلم في هذا البحث عليه أن يلاحظ تعريفه وتفصيل «ما هو الاستبداد؟ ما سببه؟ ما أعراضه؟ ما سيره؟ ما إندازه؟ ما دواؤه؟». وكل موضوع من ذلك يتحمل تفصيلات كثيرة، وينطوي على مباحث شتى من أسسها: ما هي طيناع الاستبداد؟ لماذا يكون الاستبداد شديدا أخوف؟ لماذا يستولي الجبن على رعية

(١) رفاعه رافع الطيفطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣ م) رائد عصر النهضة العربية الحديثة، جمعنا أعماله الثمينة وقدمنا لها بدراسة عن حياته وفكره. انظر طبعاتها التي أخرجناها، بيروت، في ست مجلدات بدأ صدورها سنة ١٩٧٣ م.

(٢) خير الدين باشا التوتسي (١٨١١ - ١٨٧٩ م) شاعرا فقيها، ووصل إلى منصبه الوعالي في تونس، وفي فكره الذي أودعه كتابه «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» وفي الخطب التي حولها بين وتجسد دعواته للنهضة الحديثة والتطور الرأسمالي الذي أرادته تجاوز مجتمع الإقطاع، فكرته.

(٣) أحمد فارس البستاني (١٨٠٤ - ١٨٨٨ م) أديب صحفي، أطل في كتبه وعن خلال صحيفته «الجوائد» على العصر الحديث وانحيا إلى النهضة والتجديد.

(٤) سليم البستاني الثاني الأصل (١٨٤٨ - ١٨٨٤ م) شارك أبا في تحرير دائرة المعارف التي تحمل اسمه، وتحرير صحيفة «الجنان» كما ألف عن «تاريخ فرنسا الحديث» و«تاريخ نابليون بونابرت في مصر وسورية».

(٥) المبعوث المدني من شخصيات مؤتمر «أم القرى» الذي ضمن كتاب الكواكبي «أم القرى» سجل مدققاته

المستبد؟ ما تأثير الاستبداد على الدين؟ على العلم؟ على المجد؟ على المال؟ على الأخلاق؟ على الترقى؟ على التربية؟ على العمران؟ من أعوان المستبد؟ هل يتحمل الاستبداد؟ كيف يمكن التخلص من الاستبداد؟ بماذا ينبغي استبدال الاستبداد؟

قبل الخوض في هذه المسائل يمكننا أن نشير إلى النتائج التي تستقر عندها أفكار الباحثين في هذا الموضوع، وهي نتائج متحدة المدلول مختلفة التعبير على حسب اختلاف المشارب والأنظار في الباحثين، وهي:

يقول المادي: الداء: القوة، والدواء: المقاومة.

ويقول السياسي: الداء: استعباد البرية، والدواء: استرداد الحرية.

ويقول الحكيم: الداء: القدرة على الاعتساف، والدواء: الاقتدار على الاستصاف.

ويقول الحقوقي: الداء: تغلب السلطة على الشريعة، والدواء: تغليب الشريعة على السلطة.

ويقول الرباني: الداء: مشاركة الله في الجبروت، والدواء: توحيد الله حقا.

وهذه أقوال أهل النظر، وأما أهل العزائم:

فيقول الأبى: الداء: مد الرقاب للسلاسل، والدواء: الشموخ عن الذل.

ويقول المتين: الداء: وجود الرؤساء بلا زمام، والدواء: ربطهم بالقيود الثقالة.

ويقول الحر: الداء: التعالي على الناس باطلا، والدواء: تذليل المتكبرين.

ويقول المفادي: الداء: حب الحياة، والدواء: حب الموت.

* * *

ما هو الاستبداد؟

الاستبداد، لغة: هو غرور المرء برأيه والأنفة عن قبول النصيحة، أو الاستقلال في الرأي وفي الحقوق المشتركة.

ويراد بالاستبداد، عند إطلاقه: استبداد الحكومات خاصة؛ لأنها أعظم مظاهر أضرارها التي جعلت الإنسان أشقى ذوى الحياة. وأما تحكم النفس على العقل، وتحكم الأب والأستاذ والزوج، ورؤساء بعض الأديان وبعض الشركات، وبعض الطبقات، فيوصف بالاستبداد مجازاً أو مع الإضافة.

الاستبداد، في اصطلاح السياسيين؛ هو تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم، بالمشيئة وبلا خوف تبعه، وقد تطرق مزيدات على هذا المعنى الاصطلاحي فيستعملون في مقام كلمة «الاستبداد» كلمات استعجاب، واعتساف، وتسلط، وتحكم. وفي مقابلتها كلمات: مساواة، وحسن مشترك، وتكافؤ، وسلطة عامة. ويستعملون في مقام صفة «مستبد» كلمات: جبار، وطاغية، وحاكم بأمره، وحاكم مطلق. وفي مقابلة «حكومة مستبدة» كلمات: عادلة، ومستقلة، ومقيدة، ودستورية. ويستعملون في مقام وصف الرعية «المستبد عليهم» كلمات: أسرى، ومستصغرين، وبؤساء، ومستبتين^(١)، وفي مقابلتها: أحرار، وأباة، وأحياء، وأعزاء.

هذا تعريف الاستبداد بأسلوب ذكر المرادفات والمقابلات. وأما تعريفه بالوصف: فهو أن الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان، فعلاً أو حكماً، التي

(١) الاستبتات أو التبتت من اصطلاحات الفرغ، يريدون به الحياة الشبيهة بحياة النبات. (الكواكبي).

تصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين . وتفسير ذلك هو كون الحكومة إما هي غير مكلفة بتطبيق تصرفاتها على شريعة ، أو على أمثلة تقليدية ، أو على إرادة الأمة ، وهذه حالة الحكومات المطلقة . وإما هي مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تلك بنفوذها إبطال قوة القيد بما تهوى . وهذه حالة أكثر الحكومات التي تسمى نفسها بالمقيدة أو بالجمهورية .

وأشكال الحكومة المستبدة كثيرة ليس هذا البحث محل تفصيلها . ويكفي هنا الإشارة إلى أن صفة الاستبداد ، كما تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة أو الوراثة ، تشمل أيضا الحاكم الفرد المقيد المنتخب متى كان غير مسئول ، وتشمل حكومة الجمع ولو منتخبا لأن الاشتراك في الرأي لا يدفع الاستبداد وإنما قد يعدله الاختلاف نوعا ، وقد يكون عند الاتفاق أضر من استبداد الفرد . ويشمل أيضا الحكومة الدستورية المرفقة فيها بالكلية قوة التشريع عن قوة التنفيذ وعن القوة المراقبة ، لأن الاستبداد لا يرتفع ما لم يكن هناك ارتباط في المسؤولية فيكون المفيذون مسئولين لدى المشرعين ، وهؤلاء مسئولون لدى الأمة ، تلك الأمة التي تعرف أنها صاحبة الشأن كله ، وتعرف أن تراقب ، وأن تنقضى الحساب .

وأشد مراتب الاستبداد التي يُتعوذ بها من الشيطان هي حكومة الفرد المطلق ، الوارث للعرش ، القائد للجيش ، الحائز على سلطة دينية . ولنا أن نقول كلما قل وصف من هذه الأوصاف خف الاستبداد إلى أن ينتهي بالحاكم المنتخب الموقوت المسئول فعلا ، وكذلك يخف الاستبداد طبعاً كلما قل عدد نفوس الرعية وقل الارتباط بالأملالك الثابتة وقل التفاوت في الثروة وكلما ترقى الشعب في المعارف .

إن الحكومة من أي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والاحتساب الذي لا تسامح فيه ، كما جرى في صدر الإسلام فيما نغم على عثمان ثم علي علي رضي الله عنهما ، وكما جرى في عهد هذه الجمهورية الخاضعة في فرنسا في مسائل اللياشين وينا ما ودزيقوس^(١) .

(١) ألفريد دزيقوس (١٨٥٩ - ١٩٣٥ م) ضابط فرنسي يهودي . اتهم بالخيانة العظمى ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة سنة ١٨٩٤ م ، ثم أعيدت محاكمته تحت ضغط جماهيري ، فبرئ ورد إليه اعتباره سنة ١٩٠٦ م .

ومن الأمور المقررة، طبيعة وتاريخيا، أنه لما من حكومة عادلة تأمن المسؤولية والمواخذه بسبب غفلة الأمة أو التمكن من إغفالها إلا وتسارع إلى التلبس بصفة الاستبداد، ويعد أن تتمكن فيه لا تتركه وفي خدمتها إحدى الرئيلتين العظيمتين : جهالة الأمة، والجنود المنظمة، وهما أكبر مصائب الأمم وأهم معائب الإنسانية. وقد تخلصت الأمم المتحدة نوعا ما من الجهالة، ولكن بليت بشدة الجندية الجبرية العمومية، تلك الشدة التي جعلتها آسقى حياة من الأمم الجاهلة، وألصقت عارا بالإنسانية من أقبح أشكال الاستبداد، حتى ربما يصحح أن يقال: إن مخترع هذه الجندية إذا كان هو الشيطان فقد انتقم من آدم في أولاده أعظم ما يمكن أن ينتقم ! نعم إذا ما دامت هذه الجندية التي مضى عليها نحو قرنين إلى قرن آخر أيضا تهتك تجلد الأمم وتجعلها تسقط دفعة واحدة. ومن يدري كم ينعجب رجال الاستقبال من ترقى العلوم في هذا العصر ترقيا مقرونا باشتداد هذه المصيبة التي لا تترك محلا لاستغراب إطاعة المصريين للفراعنة في بناء الأهرامات سخرة، لأن تلك لا تتجاوز النعب وضياح الأوقات، وأما الجندية فتفسد أخلاق الأمة حيث تعلمها الشراسة والطاعة العمياء والاتكال، وتميت النشاط وفكرة الاستقلال، وتكلف الأمة الإنفاق الذي لا يطاق، وكل ذلك منصرف لتأييد الاستبداد المشؤوم: استبداد الحكومات القائمة لتلك القوة من جهة، واستبداد الأمم بعضها على بعض من جهة أخرى.

ولنرجع لأصل البحث فأقول : لا يعهد في تاريخ الحكومات المدنية استمرار حكومة مسئولة مدة أكثر من نصف قرن إلى غاية قرن ونصف، وما شذ من ذلك سوى الحكومة الحاضرة في إنكلترا، والسبب بقطعة الإنكليز الذين لا يسكرهم انتصار، ولا يخملمهم انكسار، فلا يغفلون لحظة عن مراقبة ملوكهم، حتى إن الوزارة هي التي تنتخب للملك خدمه وحشمه، فضلا عن الزوجة والصهر؛ وملوك الإنكليز الذين فقدوا منذ قرون كل شيء ما عدا التاج، لو تسنى الآن لأحدهم الاستبداد لغنمه حالا، ولكن هيهات أن يظفر بغرة من قومه يستلم فيها زمام الجيش.

أما الحكومات البدوية التي تتألف رعيئها كلها أو أكثرها من عشائر يقطنون البادية ويسهل عليهم الرحيل والتفرق متى مست حكومتهم حريتهم الشخصية وسامتهم ضيما ولم يقرؤا على الاستنصاف، فهذه الحكومات قليلا اندفعت إلى الاستبداد. وأقرب مثال لذلك أهل جزيرة العرب فإنهم لا يكادون يعرفون

الاستبداد من قبل عهد ملوك تبع وحسير وغسان إلى الآن إلا فترات قليلة . وأصل الحكمة في أن الحالة البدوية بعيدة بالجملة عن الوقوع تحت نير الاستبداد هو أن نشأة البدوى نشأة استقلالية ، بحيث كل فرد يمكنه أن يعتمد في معيشته على نفسه فقط ، خلافا لمقاعدة الإنسان المدني الطبع ، تلك القاعدة التي أصبحت سخرية عند علماء الاجتماع المتأخرين ، القائلين بأن الإنسان من الحيوانات التي تعيش أسرابا في كهوف ومسارح متخصصة ، وأما الآن فقد صار من الحيوان الذي متى انتهت حضائنه عليه أن يعيش مستقلا بذاته ، غير متعلق بأقاربه وقومه كل التعلق ، ولا مرتبط ببيته وبلده كل الارتباط ، كما هي معيشة أكثر الإنكليز والأميركان الذين يفكر الفرد منهم أن تعلقه بقومه وحكومته ليس بأكثر من رابطة شريك في شركة اختيارية ، خلافا للأثم التي تتبع حكوماتها حتى فيما تدين .

الناظر في أحوال الأمم يرى أن الأسراء يعيشون متلاصقين متراكمين ، يتحفظ بعضهم ببعض من سطوة الاستبداد كالغنم تلتف بعضها على بعض إذا ذعرها الذئب ، أما العشائر والأمم الحرة ، المالك أفرادها الاستقلال الناجز ، فيعيشون متفرقين .

وقد تكلم بعض الحكماء لا سيما المتأخرون منهم ، في وصف الاستبداد وذوائه بجمل بليغة بدیعة تصور في الأذهان شقاء الإنسان كأنها تقول له : هذا عدوك ، فانظر ماذا تصنع . ومن هذه الجمل قولهم :

«المستبد يتحكم في شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم ، ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم ، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى ، فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته » .

«المستبد عدو الحق ، عدو الحرية ، وقاتلهما . والحق أبو البشر ، والحرية أمهم ، والعوام صبيبة أيتام نيام لا يعلمون شيئا ، والعلماء هم أخوتهم الراشدون ، إن أيقظوهم هبوا وإن دعوهم لبوا ، وإلا فيتصل نومهم بالموت » .

«المستبد يتجاوز الحد ما لم ير حاجزا من حديد ، فلورأى الظالم على جنب المظلوم سيفا لما أقدم على الظلم ، كما يقال : الاستعداد للحرب يمنع الحرب » .

«المستبد إنسان مستعد بالطبع للشر وبالإلحاء للخير ، فعلى الرعية أن تعرف ما هو الخير وما هو الشر فتلجج حاكمها للخير على رغم طبعه ، وقد يكفي للإلحاء

مجرد الطلب إذا علم الحاكم أن وراء القول فعلا . ومن المعلوم أن مجرد الاستعداد للفعـل فعل يكفي شر الاستعداد .

«المستبد يود أن تكون رعيته كالغنم درا وطاعة ، وكالكلاب تذلا وتلقا . وعلى الرعية أن تكون كالخيل إن خُدِمت خُدِمت وإن ضُرِبَت شَرِسَت ، وعليها أن تكون كالصقور لا تلاعب ولا يستأثر عليها بالصيد كله ، خلافا للكلاب التي لا فرق عندها أضعفت أم حُرِمَت حتى من العظام . نعم على الرعية أن تعرف مقامها : هل خلقت خادمة لحاكمها ، تقطيعه إن عدل أو جاز ؟ وخلق هو ليحكمها كيف شاء بعدل أو اعتساف ؟ أم هي جاءت به ليعلمها فاستخدمها ؟^(١) والرعية العاقلة تقيد وحش الاستبداد بزمَام تستमित دون بقائه في يدها لتأمين من بطشه ، فإن شئخ هزّت به الزمام وإن ضال ربطته» .

من أقبح أنواع الاستبداد استبداد الجهل على العلم ، واستبداد النفس على العقل . ويسمى استبداد المرء على نفسه ، وذلك أن الله جلت نعمه خلق الإنسان حرا قائده العقل ، فكفر وأبى إلا أن يكون عبدا قائده الجهل . خلقه وسخر له أما وأبا يقومان بأوده إلى أن يبلغ أشده ، ثم جعل له الأرض أما والعمل أبا . فكفر وما رضى إلا أن تكون حكمته^(١) أمه وحاكمه أبا . خلق له إدراكا ليهتدى إلى معاشه وينقى مهلكه . وعينين ليبصر ، ورجلين ليسعى ، ويدين ليعمل ، ولسانا ليكون ترجمانا عن ضميره . فكفر وما أحب إلا أن يكون كالأبله ، الأعمى ، المتعبد ، الأشل ، الكذوب ، ينتظر كل شيء من غيره ، وقلمما يطابق لسانه جنانه . خلقه منفردا غير متصل بغيره ليملك اختياره في حركته وسكونه ، فكفر . وما استطاب إلا الارتباط في أرض محدودة سماها الوطن ، وتشابهك بالناس ما استطاع اشتباك نظامك لا اشتباك تعاون . . خلقه ليشكره على جعله عنصرا حيا بعد أن كان ترابا ، وليلجأ إليه عند الفزع تشبها للجنان ، وليستند عليه عند العزم دفعا للتردد ، وليثق بكافأته أو مجازاته على الأعمال ، فكفر وأبى شكره ، وخلط في دين الفطرة الصحيح بالباطل ليغالط نفسه وغيره . خلقه يطلب منفعته جاعلا لوائه الوجدان ، فكفر ، واستحل المنفعة بأي وجه كان ، فلا يتعفف عن محظور صغير إلا توصلا

(١) في الأصل المطبوع : أمه ، ونعتقد أنها تحريف لكلمة : حكمته .

لمحرم كبير . خلقه وبذل له مواد الحياة ، من ثور وفسيم ونبات وحيوان ومعادن وعناصر مكنوزة في خزائن الطبيعة ، بمقادير ناطقة بلسان الحال بأن واهب الحياة حكيم خبير جعل مواد الحياة الأكثر لزوما في ذاته ، أكثر وجودا وابتدالا ، فكفر الإنسان نعمة الله . وأبى أن يعتمد كفاية رزقه ، فوكله ربه إلى نفسه ، وابتلاه يظلم نفسه وظلم جنسه . وهكذا كان الإنسان ظلوما كثيرا .

الاستبداد يد الله القوية الخفية يصفع بها رقاب الأتقي من جنة عبوديته إلى جهنم عبودية المستبدين الذين يشاركون الله في عظمته ويعاندونه جهارا . وقد ورد في الخبر : « الظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه » . كما جاء في أثر آخر : « من أعل ظالما على ظلمه سلطه الله عليه » . ولا شك في أن إعانة الظالم بتبدي من مجرد الإقامة في أرضه .

الاستبداد هو نار غضب الله في الدنيا ، والجحيم نار غضبه في الآخرة ، وقد خلق الله النار أقوى المطهرات فيطهر بها في الدنيا دنس من خلقهم أحرارا ويسط لهم الأرض واسعة وبذل فيها رزقهم ، فكفروا بنعمته وأدعوا للاستعباد والتظالم .

الاستبداد أعظم بلاء ، يتعجل الله به الانتقام من عباده الخاملين ، ولا يرفعه عنهم حتى يتوبوا توبة الأنفة . نعم . الاستبداد أعظم بلاء لأنه ويا داء دائما يلفظ ، وجذب مستمر يعطيل الأعمال ، وحريق متواصل بالسلب والغصب ، وسيل جارف للعمزان ، وخوف يقطع القلوب ، وظلام يعمى الأبصار ، وآلم لا يفتر ، وصائل لا يرحم . وقصة سنوء لا تنتهي . وإذا سأل سائل لماذا يبتلى الله عباده بالمستبدين ؟ فأبلغ جواب ممكن هو : إن الله عادل مطلق لا يظلم أحدا ، فلا يولى المستبد إلا على المستبدين . ولو نظر السائل نظرة الحكيم المدقق لوجد كل فرد من أسراء الاستبداد مستبدا في نفسه ، لو قدر لجعل زوجته وعائلته وعشيرته وقومه والبشر كلهم ، حتى ورثه الذي خلقه ، تابعين لرأيه وأمره .

فالمستبدون يتولاهم مستبد ، والأحرار يتولاهم الأحرار ، وهذا صريح معنى : « كما تكونوا يولى عليكم » .

ما أليق بالأسير في أرض أن يتحول عنها إلى حيث يملك حريته ، فإن الكلب الطليق خير حياة من الأسد المربوط .



الاستبداد والدين

تضافرت آراء أكثر العلماء الناظرين في التاريخ الطبيعي للأديان على أن الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني - والبعض القليل يقول: إن لم يكن هناك توليد فهما أخوان. أبوهما التغلب وأمهما الرياسة، أو هما صنوان قويان بينهما رابطة الحاجة على التعاون لتذليل الإنسان. والمشكلة بينهما أنهما حاكمان، أحدهما في مملكة الأجسام، والآخر في عالم القلوب.

والفريقان مصيبان في حكمهما بالنظر إلى مغزى أساطير الأولين والقسم التاريخي من التوراة والرسائل المضافة إلى الإنجيل، ولكنهم مخطئون في حق الأقسام التعليمية الأخلاقية فيهما، كما هم مخطئون إذا نظروا إلى أن القرآن جاء مؤيدا للاستبداد السياسي، وليس من العذر في^(١) شيء أن يقولوا^(٢): نحن لا ندرك دقائق القرآن نظر الحقائقها علينا في طي بلاغت ووراء العلم بأسباب نزول آياته، وإنما نبني نتيجتنا على مقدمات ما نشاهد عليه المسلمين نندقرون إلى الآن من استعانة مستيديهم بالدين.

يقول هؤلاء المحررون: إن التعاليم الدينية ومنها الكتب السماوية تدعو البشر إلى خشية قوة عظيمة هائلة لا تدرك العقول كلها، قوة تهدد الإنسان بكل مصيبة في الحياة فقط، كما عند البوذية واليهودية، أو في الحياة وبعد الممات كما عند النصارى والإسلام، تهديدا ترتعد منه الفرائص فتخور القوى، وتذهل منه العقول فتستسلم للخبل والخنول، ثم تفتح هذه التعاليم أبوابا للتجاة من تلك المخاوف:

(١) زيادة من عندنا ليشتم الأسلوب.

(٢) عبارة الغيبة الأولى من الأصل، أو بعينهم يعدرون إذا قوا.

نجاه وراءها نعيم مقيم، ولكن على تلك الأبواب حجاب من البراهمة والكهنة والقسوس وأمثالهم، الذين لا يأذنون للناس بالدخول ما لم يعظموهم. مع التذلّل والصغار، ويرزقوهم باسم نذر أو ثمن غفران، حتى إن أولئك الحجاب في بعض الأديان يحجزون فيما يزعمون لقاء الأرواح بريها ما لم يأخذوا عنها مكوس المرور إلى القبور وفدية الخلاص من مطهر الأعراف. وهؤلاء المهيمنون على الأديان كم يرهبون الناس من غضب الله ويندرونهم بحلول مصائبه وعذابه عليهم، ثم يرشدونهم إلى أن لا خلاص ولا مناص لهم إلا بالالتجاء إلى سكان القبور الذين لهم دالة بل سطوة على الله فيحمونهم من غضبه.

ويقولون: إن السياسيين يبنون كذلك استبدادهم على أساس من هذا القبيل. فهم يترهبون الناس بالتعالى الشخصى والتشامخ الحسى، ويذلّونهم بالقوة وسلب الأموال حتى يجعلوهم خاضعين لهم عاملين لأجلهم يتمتعون بهم كأنهم نوع من الأنعام التى يشربون لبناتها ويأكلون حومها ويركبون ظهورها وبها يتفاخرون.

ويرون أن هذا المشاكل فى بناء ونتائج الاستبداديين الدينى والسياسى جعلهما فى مثل فرنسا خارج باريس مشتركين فى العمل كأنهما يدان متعاونتان، وجعلهما فى مثل روسيا مشتركين فى الوظيفة كأنهما الملوحة والقلم يسجلان الشقاء على الأمم.

ويقرون أن هذا المشاكل بين القوتين ينجرّ يعوام البشر. وهم السواد الأعظم، إلى نقطة أن يلتبس عليهم الفرق بين الإله المعبود بحق وبين المستبد المطاع بالقهر، فيخجلطان فى مضايق أذهانهم من حيث التشابه فى استحقاق مزيد التعظيم، والرفعة عن السؤال، وعدم المؤاخذه على الأفعال. بناء عليه لا يرون لأنفسهم حقاً فى مراقبة المستبد لانتفاء النسبة بين عظمتهم ودناءتهم. وبعبارة أخرى يجد العوام معبودهم وجبارهم مشتركين فى كثير من الحالات والأسماء والصفات، وهم هم، ليس من شأنهم أن يفرقوا مثلاً بين «الفعال المطلق»، والحاكم بأمره وبين «الأسأل عما يفعل» وغير مسئول، وبين «المتعم وولى نعم» وبين «جل شأنه» وجليل الشأن. بناء عليه يعظمون الجبابرة تعظيمهم لله، ويزيدون تعظيمهم على التعظيم لله لأنه حلیم كريم ولأن عذابه أجل غائب، وأما انتقام الجبار فعاجل حاضر. والعوام

كما يقال: عفو لهم في عيونهم، يكاد لا يتجاوز فعلهم المحسوس المشاهد. حتى يصح أن يقال فيهم: لو لا رجائهم بالله وخوفهم منه فيما يتعلق بحياتهم الدنيا لما صلوا ولا صاموا، ولو لا أملهم العاجل لما رجحوا قراءة الدلائل والأوراد على قراءة القرآن، ولا رجحوا اليمين بالأولياء المقربين، كما يعتقدون، على اليمين بالله.

وهذه الحال هي التي سهلت في الأمم الغابرة المنحطة دعوى بعض المستبدين الألوهية على مراتب مختلفة حسب استعداد أذهان الرعية، حتى يقال إنه ما من مستبد سياسي إلى الآن إلا ويتخذ له صفة قدسية يشارك بها الله أو تعطيه مقام ذي علاقة مع الله. ولا أقل من أن يتخذ بطانة من خدمة الدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله، وأقل ما يعينون به الاستبداد تفريق الأمم إلى مذاهب وشيع متعادية تقاوم بعضها بعضا، فتتهافت قوة الأمة ويذهب ريحها، فيخلو الجو للاستبداد ليبيض ويفرخ، وهذه سياسة الإنكليز في المستعمرات لا يؤيدها شيء مثل انقسام الأهالي على أنفسهم وإفنائهم بأسهم بينهم بسبب اختلافهم في الأديان والمذاهب.

ويعلمون أن قيام المستبدين من أمثال «أبناء داود» و«قسطنطين» في نشر الدين بين رعاياهم، وانتصار مثل «فيليب الثاني» الإسباني و«هنري الثامن» الإنكليزي للدين، حتى بتشكيل مجالس «إنكليزيون» وقيام الحاكم الفاطمي والسلاطين الأعاجم في الإسلام بالانتصار لغلاة الصوفية، وبنائهم لهم الشكايا، لم يكن إلا بقصد الاستعانة بمسوح الدين وبيعهم أهله المغفلين على ظلم المساكين، وأعظم ما يلائم مصلحة المستبد ويؤيدها أن الناس يتلقون فواعده وأحكامه بإذعان بدون بحث أو جدال فيودون تأليف الأمة على تلقى أوامرهم بمثل ذلك، ولهذا القصد عينه كثيرا ما يحاولون بناء أوامرهم أو تفريعها على شيء من قواعد الدين.

ويحكمون بأن بين الاستبداديين السياسي والديني مقارنة لا تنفك، متى وجد أحدهما في أمة جر الآخر إليه، أو متى زال زال رفيقه، وإن صلح (أي ضعف) أحدهما صلح - أي ضعف - الثاني. ويقولون: إن شواهد ذلك كثيرة جداً، لا يخلو منها زمان ولا مكان. ويبرهتون على أن الدين أقوى تأثيراً من السياسة، إصلاحاً وإفساداً، ويمثلون بالسكسون، أي الإنكليز والهولنديين والأميركان والألمان، الذين قبلوا البروتستانتية، فأثر التحرير الديني في الإصلاح السياسي والأخلاق أكثر من

تأثير الحرية المطلقة السياسية في جمهور اللاتين، أى الفرنسيين واليطاليين والإسبانيون والبرتغالي. وقد أجمع الكتاب السياسيون المدققون، بالاستناد إلى التاريخ والاستقراء، (على)^(١) أن ما من أمة أو عائلة أو شخص تنطع في الدين، أى تشدد فيه، إلا واختل نظام دنياه وخسر أولاده وعقباه.

والحاصل أن كل المدققين السياسيين يرون أن السياسة والدين يمشيان متكاتفين، ويقدرّون أن إصلاح الدين أسهل وأقوى وأقرب طريقاً للإصلاح السياسى.

وربما كان أول من سلك هذا المسلك، أى استخخدم الدين فى الإصلاح السياسى، هم حكماء اليونان، حيث تحيلوا على ملوكهم المستبدين فى حملهم على قبول الاشتراك فى السياسة بإحيائهم عقيدة الاشتراك فى الألوهية، أخذوها عن الآشوريين ومزجوها بأساطير المضربين، بصورة تخصيص العدالة باله والحر بباله والأمطار باله، إلى غير ذلك من التوزيع، وجعلوا لإله الآلهة حق النظارة عليهم، وحق التراجع عند وقوع الاختلاف بينهم. ثم بعد تمكن هذه العقيدة فى الأذهان، بما ألبست من جلالة المظاهر وسحر البيان، سهل على أولئك الحكماء دفعهم الناس إلى مطالبته جبايرتهم بالتزول من مقام الانفراد، وبأن تكون إدارة الأرض كإدارة السماء، فانصاع ملوكهم إلى ذلك مكرهين. وهذه هى الوسيلة العظمى التى مكنت اليونان أخيراً من إقامة جمهوريات أثينا وإسبارطة. وكذلك فعل الرومان. وهذا الأصل لم يزل المثال القديم لأصول توزيع الإدارة فى الحكومات الملكية والجمهوريات على أنواعها إلى هذا العهد.

إنما هذه الوسيلة، أى التشريك، فضلاً عن كونها باطلة فى ذاتها، نتج عنها أخيراً رد فعل أضر كثيراً، وذلك أنها فتحت للمشعوذين من سائر طبقات الناس باباً واسعاً لدعوى شيء من خصائص الألوهية، كالصفات القدسية والتصرفات الروحية، وكان قبل ذلك لا يتهجم على مثلها غير أفراد من الجبابة كنعمود إبراهيم وفرعون موسى. ثم صار يدعيها البرهمى والبادى والصوفى. وللملأمة هذه المفسدة لطباع البشر من وجوه كثيرة، ليس بحثنا هذا محلها، انتشرت وعمت وجندت جيشاً عرمرم يخدم المستبدين.

(١) فى الأصل: نرى.

وقد جاءت التوراة بالنشاط ، فخلصتهم من خمول الاتكال بعد أن بلغ فيهم أن يكلفوا الله ونبيه يقاتلان عنهم ، وجاءتهم بالنظام بعد فوضى الأحلام ، ورفعت عقيدة التشريك مستبدلة مثلاً بأسماء الآلهة المتعددة الملائكة ، ولكن لم يرض بعض ملوك آل كوهين بالتوحيد فأفسدوه ، ثم جاء الإنجيل بسلسلة الدعة والحلم فصادف أفئدة محروقة بنار القساوة والاستبداد ، وكان أيضاً مؤيدا لناموس التوحيد ، ولكن لم يقمودعاته الأولون على تفهيم تلك الأقوام المنحطة ، الذين بادروا لقبول النصرانية قبل الأمم المترقية ، أن الأبوة والنبوة صفتان مجازيتان يعبر بهما عن معنى لا يقبله العقل إلا تسليماً ، كمسألة القدر التي ورثت الإسلامية التفلسف فيها عن أدیان الهند وأوهام اليونان . ولهذا تلقت تلك الأمم الأبوة والنبوة بمعنى توالد حقيقى لأنه أقرب إلى مداركهم البسيطة التي يصعب عليها تناول ما فوق المحسوسات ، ولأنهم كانوا قد ألفوا الاعتقاد فى بعض خبايرتهم الأولين أنهم أبناء الله ، فكبر عليهم أن يعتقدوا فى عيسى عليه السلام صفة هى دون مقام أولئك الملوك . ثم لما انتشرت النصرانية ودخلها أقوام مختلفون ، تلبست ثوباً غير ثوبها ، كما هو شأن سائر الأديان التي ملفتها ، فتوسعت برسائل بولس ونحوها ، فامتزجت بأزياء وشعارات وثنية للرومان والنصرين ، مضافة على شعارات الإسرائيليين ، وأشياء من الأساطير وغيرها ، وأشياء من مظاهر الملوك ونحوها . وهكذا صارت النصرانية تعظم رجال الكهنوت إلى درجة اعتقاد النيابة عن الله والعصمة عن الخطي وقوة التشريع ، ونحو ذلك مما رفضه أخيراً البروتستانت ، أنى الراجعون فى الأحكام لأصل الإنجيل .

ثم جاء الإسلام مهذباً لليهودية والنصرانية ، مؤسساً على الحكمة والتعزم ، هادماً للتشريك بالكلية ، ومحكماً لقواعد الحرية السياسية المتوسعة بين الديمقراطية والأريستقراطية ، فأسس التوحيد ، ونزع كل سلطة دينية أو تخيلية تتحكم فى النفوس أو فى الأجسام ، ووضع شريعة حكمة إجمالية صالحة لكل زمان وقوم ومكان ، وأوجد مدنية فطرية سامية ، وأظهر للوجود حكومة كحكومة الخلفاء الراشدين التي لم يسمح الزمان بمثال لها بين البشر ، حتى ولم يخلفهم فيها بين المسلمين أنفسهم خلفاء ، إلا بعض شواذ كعمر بن

عبد العزيز^(١) والمهتدي العباسي^(٢) ونور الدين الشهيد^(٣). فإن هؤلاء الخلفاء الراشدين فهموا معنى ومغزى القرآن النازل بلغتهم وعملوا به واتخذوه إماماً، فأنشئوا حكومة قطعت بالتساوي حتى بينهم أنفسهم وبين فقراء الأمة في نعيم الحياة وشظفها، وأحدثوا في المسلمين عواطف أخوة وروابط هيئة اجتماعية اشتراكية لا تكاد توجد بين أشقاء يعيشون بإعالة أب واحد وفي حضنة أم واحدة، لكل منهم وظيفة شخصية، ووظيفة عائلية ووظيفة قومية. على أن هذا الطراز الساسي من الرياسة هو الطراز النبوي الحمدي لم يخلفه فيه حقاً غير أبي بكر وعمر ثم أخذ بالتناقص، وصارت الأمة تطلبه وتبكيه من عهد عثمان إلى الآن، وسيدوم بكاؤها إلى يوم الدين إذا لم نتسببه لاستعواضه بطراز سياسي شوري، ذلك الطراز الذي احدثت إليه بعض أسم الغرب، تلك الأمم التي، لربما يصح أن نقول. قد استفادت من الإسلام أكثر مما استفادته المسلمون.

وهذا القرآن الكريم مشحون بتعاليم إمامة الاستبداد وإحياء العدل والتساوي حتى في القصص منه، ومن جملتها قول بلقيس ملكة سبا، من عرب تبع، تخاطب أشراف قومها. ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ (٣٢) قَالُوا بَحْنُ أُولَئِكَ قُوَّةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ السُّدُودُ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (سورة النمل : ٣٢ - ٣٤).

فهذه القصة تعلم كيف ينبغي أن يستشير الملوك الملأ، أي أشراف الرعية، وألا يقطعوا أمراً إلا بإرأيهم، وتشير إلى لزوم أن تحفظ القوة والبأس في يد الرعية، وأن يختص الملوك بالتنفيذ فقط، وأن يكرموا بنسبة الأمر إليهم توقيراً، وتقيح شأن الملوك المستبدين.

(١) الخليفة الأموي الشهير (٦٨٦ - ٧١٩ م)، وهو المعلوم في التاريخ الإسلامي خامس الخلفاء الراشدين.

(٢) حكمه عشر سنوات (٧٧٥ - ٧٨٥ م).

(٣) هو الملك العادل أبو القاسم نور الدين محمود بن عماد الدين أتابك مصر سعيد بن أبي (١١١٧ م).

(٤) ١١٧٤ م) وعلى يديه كانت نشأة حركة القروية الإسلامية التي صدرت العز والعلوية، والتي كان صلاح الدين الأيوبي ذروتها وعصرها الذهبي.

ومن هذا الباب أيضا ما ورد في قصة موسى، عليه السلام، مع فرعون في قوله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٠٩) يريد أن يخرجكم من أرضكم فسادا تأمرون ﴿ (سورة الأعراف: ١٠٩، ١١٠). أي قال الأشراف بغضهم لبعض: ماذا رأيكم؟ ﴿ قالوا ﴾ خطايا لفرعون وهو قوارهم: ﴿ قالوا أرجه وأحياه وأرسل في المداائن حاضرين ﴾ (١٠٠) يأتوك بكل ساحر عليهم: ﴿ ثم وصف مذاكراتهم بقوله تعالى: ﴿ ففتازعوا أمرهم ﴾ أي رأيهم: ﴿ بينهم وأسروا النجوى ﴾ (طه: ٦٢). أي أقضت مذاكراتهم العلنية إلى النزاع فأجروا مذاكرة سرية طبق ما يجرى إلى الآن في مجالس الشورى العمومية.

بناء عليه لا مجال لرمي الإسلامية بتأييد الاستبداد مع تأسيسها على مبادئ من أمثال هذه الآيات الينيات التي منها قوله تعالى: ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ (سورة آل عمران: ١٥٩)، أي في الشأن، ومن قوله تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ (سورة النساء: ٥٩). أي أصحاب الرأي والشأن منكم، وهم العلماء والروضاء على ما اتفق عليه أكثر المفسرين، وهم الأشراف في اصطلاح السياسيين. وما يؤيد هذا المعنى أيضا قوله تعالى: ﴿ وما أمر فرعون ﴾ (سورة هود: ٩٧). أي ما شأنه. وحديث: "أميرى من الملائكة جبريل" أي مشاوري.

وليس بالأمر الغريب ضياع معنى "أولى الأمر" على كثير من الأفهام بتضليل علماء الاستبداد الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وقد أغفلوا معنى قيد ﴿ منكم ﴾ أي المؤمنين منعاً لتطرق أفكار المسلمين إلى التفكير بأن الظالمين لا يحكمونهم بما أنزل الله، ثم التدرج إلى معنى آية: ﴿ إن الله يأمر بالعدل ﴾ (النحل: ٩٠)، أي التساوى. ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ (النساء: ٥٨) أي التساوى. ثم ينتقل إلى معنى آية: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ (المائدة: ٤٤). ثم يستتج عدم وجوب طاعة الظالمين وإن قال بوجوبها بعض الفقهاء الممالئين دفعا للفتنة التي تحصد أمثالهم حصدا. والأغرب من هذا جسارتهم على تضليل الأفهام في معنى "أمر" في آية: ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية

أمرنا متر فيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا (الإسراء: ١٦) ،
فإنهم لم يبالوا أن يتسبوا إلى الله الأمر بالفسق . . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .
والحقيقة في معنى « أمرنا » هنا أنه بمعنى أمرنا - بكسر الميم أو تشديدها - أي جعلنا
أمرها متر فيها ففسقوا فيها (أي ظلموا أهلها) فحق عليهم العذاب (أي نزل بهم
العذاب) .

والأغرب من هذا وذلك أنهم جعلوا للفظ العدل معنى عرفيا هو الحكم بمقتضى
ما قاله الفقهاء حتى أصبحت لفظ العدل لا تدل على غير هذا المعنى ، مع أن العدل
لغة التسوية ، فالعدل بين الناس هو التسوية بينهم ، وهذا هو المراد في آية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ . وكذلك القصاص في آية : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (البقرة :
١٧٩) ، المتواردة مطلقا ، لا المعاقبة بالمثل فقط على ما يتبادر إلى أذهان الأسراء
الذين لا يعرفون للتساوى موقعا في الدين غير الوقوف بين يدي القضاة .

وقد عدد الفقهاء من لا تقبل شهادتهم لسقوط عدالتهم ، فذكروا حتى من يأكل
ماشيا في الأسواق ، ولكن شيطان الاستبداد أنساهم أن يفسقوا الأمراء الظالمين
فيردوا شهادتهم . ولعل الفقهاء يذرون بسكويتهم هنا مع تشجيعهم على الظالمين في
مواقع أخرى ، ولكن ما عذرهم في تحويل معنى الآية : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ
إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) إلى أن هذا
الفرع هو فرض كفاية لا فرض عين ؟ والمراد منه سيطرة أفراد المسلمين بعضهم
على بعض ، لا إقامة فئة تسيطر على حكائهم كما اهتمت إلى ذلك الأمم الموقفة
للخير ، فخصصت منها جماعات باسم مجائس نواب وتليفاتها للسيطرة
والاحتساب على الإدارة العمومية : السياسية والمالية والتشريعية ، فتخلصوا بذلك
من شأمة الاستبداد . ألمست هذه السيطرة وهذا الاحتساب بأهم من السيطرة على
الأفراد ؟ ومن يدري من أين جاء فقهاء الاستبداد بتقديس الحكام عن المسؤولية حتى
أوجبوا لهم الحمد إذا عدلوا ، وأوجبوا العير عليهم إذا ظلموا ، وعدوا كل معارضة
لهم بغيا يبيح دماء المعارضين ؟ !

اللهم إن المستبددين وشركاءهم قد جعلوا دينك غير الدين الذي أنزلت ، فلا حول
ولا قوة إلا بك !

كذلك ما عذر أولئك الصوفية الذين جعلتهم الإعامات على زوايتهم أن يقولوا: لا يكون الأمين الأعظم إلا ولياً من أولياء الله، ولا يأتي أمراً إلا بالهام من الله، وإنه يتصرف في الأمور ظاهراً، ويتصرف فيها قلب الغوث باطناً! ألا سبحانه الله ما أحله!

نعم، لو لا حلم الله تحسف الأرض بالعرب، حيث أرسل لهم رسولاً من أنفسهم، أسس لهم أفضل حكومة أسست في الناس، جعل قاعدتها قوله: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، أي كل منكم سلطان عام ومستول عن الأمة. وهذه الجملة التي هي أسس وأبلغ ما قاله مشرع سياسي من الأولين والآخرين، جاء من المنافقين من حرق معناها عن ظاهرها وعموميتها إلى أن المسلم راع على عائلته ومسئول عنها فقط. كما حرقوا معنى الآية: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١) إلى ولاية الشهادة دون الولاية العامة، وهكذا غيروا مفهوم اللغة، وبدلوا الدين وطمسوا على العقول حتى جعلوا الناس ينسون لذة الاستقلال، وعزة الحرية، بل جعلوهم لا يفكرون كيف تحكم أمة نفسها بنفسها دون سلطان قاهر.

وكان المسلمون لم يسمعوا بقول النبي عليه السلام: «الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»^(١). وهذا الحديث من أوضح الأحاديث لمطابقة للحكمة وسجيته مفسراً الآية: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، فإن الله جل شأنه ساوى بين عباده مؤمنين وكافرين في المكرمة بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠)، ثم جعل الأفضلية في الكرامة للمعتقين فقط. وسعني التقوى لغة ليس كثرة العبادة كما صار ذلك حقيقة غرسها علماء الاستبداد القائلين في تفسير ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي في الآخرة دون الدنيا، بل التقوى لغة هي الانقلاء أي الابتعاد عن ردائل الأعمال احترازاً من عقوبة الله. فتقوله ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾ كقولهم إن أفضل الناس أكثرهم ابتعاداً عن الآثام وسوء عواقبها.

(١) رواه البخاري ومسلم

وقد ظهر مما تقدم أن الإسلامية مؤسسة على أصول الحرية برفعها كل سيطرة وتحكم بأمرها بالعدل والمساواة والقسط والإخاء، بحضنها على الإحسان والتحابب. وقد جعلت أصول حكومتها: الشورى الأريستوقراطية، أى شورى أهل الحل والعقد فى الأمة يعقولهم لا بسيفهم. وجعل أصول إدارة الأمة: التشريع الديمقراطي، أى الاشتراكي حسبما يأتى فيما بعد. وقد مضى عهد النبى عليه السلام وعهد الخلفاء الراشدين على هذه الأصول بأنهم أكمل صورها. ومن المعلوم أنه لا يوجد فى الإسلامية نفوذ دبنى مطلقا فى غير مسائل إقامة شعائر الدين، ومنها القواعد العامة التشريعية التى تبلغ مائة قاعدة وحكم، كلها من أجل وأحسن ما اهتدى إليه المشرعون من قبل ومن بعد. ولكن وأسفاه على هذا الدين الجرح، الحكيم، السهل، السمع، الظاهرة فيه آثار الرقى على غيره من سوابقه، الدين الذى رفع الإصر والأغلال، وأباد الميزة والاستبداد. الدين الذى ظلمه الجاهلون فهجروا حكمه القرآن ودفنوها فى قبور الهوان، الدين الذى فقد الأنصار الأبرار والحكماء الأخيار، فسقطا عليه المستبدون والمترشعون للاستبداد، واتخذوه وسيلة لتفريق الكلمة وتقسيم الأمة شيعة، وجعلوه آلة لأهوائهم السياسية، فضيعوا مزاياه، وحجروا أهله بالتفريع والتوسيع، والتشديد والتشويش، وإدخال ما ليس منه فيه، كما فعل قبلهم أصحاب الأديان السائرة، حتى جعلوه ديناً حرجاً يتوهم الناس فيه أن كل ما دونه المتلذذون بين دفتى كتاب ينسب لاسم إسلامى هو من الدين، وبمقتضاها ألا يقوى على القيام بواجباته وأدابه ومريداته إلا من لا علاقة له بالحياة الدنيا، بل أصبحت بمقتضاها حياة الإنسان الطويل العمر، العاقل عن كل عمل، لا تقى بتعلم ما هى الإسلامية، تعجزا عن تمييز الصحيح من الباطل من تلك الآراء المتشعبة التى أطال أهلها فيها الجدل والمناظرة، وما اختلفوا إلا وكل منهم فى موقفه الأول، يظهر أنه ألزم خصمه الحجة وأسكته بالبرهان، والحقيقة أن كلا منهم قد سكت تعباً وكلالاً من المشاغبة.

وبهذا التشديد الذى أدخله على الدين منافسوا المجوس، انفتح على الأمة باب التلزم على النفس، واعتقاد التقصير المطلق، وأن لا نجاة ولا مخرج ولا إمكان لمحاسبة النفس، فضلاً عن محاسبة الحكام المنوط بهم قيام العدل والنظام. وهذا الإهمال للمراقبة، وهو إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد أوسع لأمر

الإسلام مجال الاستبداد وتجاوز الحدود. وبهذا، وذاك ظهر حكم حديث: «تأمرن بالمعروف ولتنتهون عن المنكر أو ليستعملن الله عليكم شراركم فليسومنكم سوء العذاب»^(١). وإذا تتبعنا سيرة أبي بكر وعمر رضى الله عنهما مع الأمة، نجد أنهما مع كونهما مفطورين خير فطرة، وناقلين التربية النبوية لم تترك الأمة معهما المراقبة والمحاسبة ولم تطعهما طاعة عمياء.

وقد جمع بعضهم جملة مما اقتبسها المسلمون وأخذوه عن غيرهم، وليس هو من دينهم بالنظر إلى القرآن والتواترات من الحديث وإجماع السلف الأول، فقال:

«اقتبسوا» من النصرانية مقام البابوية باسم الغوثية.

و«ضاهوا» في الأوصاف والأعداد أوصاف وأعداد البطارقة، والكردينالية والشهداء والأساقفة.

و«حاكوا» مظاهر القديسين وعجائبهم، والدعاة المبشرين وصيرهم، والرهينات ورؤساءها، وحالة الأديرة وبادريتها. والرهينات ورسومها، والحمية وتوقيتها.

و«قلدوا» رجال الكهنتوت والبراهمة في مراتبهم وتمييزهم في ألبستهم وشعورهم، ولبس المسابح في الرقاب.

و«قلدوا» الوثنيين الرومانيين في الرقص على أنغام الناي، والتغالي في تطيب الموتى، والاحتفال الزائد في الجنائز وتسريح الذبائح معها، وتكليلها وتكليل القبور بالأزهار.

و«شاكلوا» مراسم الكنائس وزينتها، والبيع واحتفالاتها، والترتجات ووزنها، والترنمات وأصولها، وإقامة الكنائس على القبور، وشد الرحال لزيارتها، والإسراج عليها، والخضوع لديها، وتعليق الآمال بسكانها.

و«أخذوا» الشبك بالآثار: كالقدح والحرية والدستار، من احترام الدخيرة وقدسية العكاز، وكذلك إمرار اليد على الصدر عند ذكر الصالحين. من إمراؤها على الصدر لإشارة الصليب.

و«انتزعوا» الحقيقة من السر، ووحدة الوجود من الحلول، والخلافة من الرسم،

(١) رواه الترمذي وأبو داود.

والسقى من تناول القربان، والمولد من الميلاد، وحفلته من الأعياد، ورفع الأعلام من جبل انصليان، وتعليق ألواح الأسماء المصدرة بالتداء على الجدران من تعبيق الصور والتماثيل، والاستفاضة والمراقبة من التوجه بالقلوب اتحناء أمام الأصنام.

و«منعوا» الاستهداء من نصوص الكتاب والسنة كحظر الكاثوليك التفهم من الإنجيل، وامتناع أهباء اليهود عن إقامة الدليل من التوراة فى الأحكام.

و«جاءوا» من المجوسية باستطلاع الغيب من الفلك، وبخشية أوضاع الكواكب، وباتخاذ أشكالها شعارا للملك، وباحترام النار ومواقدها.

و«القدوا» البوذيين حرفا بحرف فى الطريق والرياضة وتعذيب الجسم بالثار والسلاح، واللعب بالحنيات والعقارب وشرب السموم، ودق الطبول والنضوج. وجعل رواتب من الأدعية والآناسيد والأحزاب، واعتقاد تأثير العزائم، وتداء الأسماء، وحمل التماثيل، إلى غير ذلك مما هو مشاهد فى بودى الهند ومنجوس فارس والسند إلى يومنا هذا. وقد قيل إنه نقله إلى الإسلامية أفشال جون وست وسلطان على بنلا والبغدادى وحاشية فلان الشيخ وفلان الفارسى. على أن إستاذ ذلك إلى أشخاص معينين يحتاج إلى تثبيت.

و«الفقوا» من الأساطير والإسرائيليات أنواعا من القربان، وعلوما سمونها لدييات.

وكذلك يقال عن فيتدعى النصارى من أن أكثر ما اعتبره المتأخرون منهم من الشعائر الدينية، حتى مشكلة التثليث، لا أصل له فيما ورد عن نفس المسيح عليه السلام، إنما هي مزيادات وترتيبات قليلها متبع، وكثيرها مبتدع^(١). وقد اكتشف العلماء الآثاريون^(٢) من الصفائح الحفرية الهندية والآشورية ومن الصحف التى وجدت فى نواويس المصريين الأقدمين على ماخذ أكثرها. وكذلك وجدوا المزيادات المتلمود وبدع الأهباء أصولا فى الأساطير والآثار والألواح الآشورية. وترقبوا فى التطبيق والتدقيق إلى أن وجدوا معظم الحرقاات المضافة إلى أصول عامة الأديان فى الشرق الأدنى مقتبسة من الوضعيات المنسوبة لنحل الشرق الأقصى. وقد كشفت

(١) فى طبعة النص المتبع: قليلها مبتدع وكثيرها متبع. وما أبتناء عن نسخة الطبعة الأولى

(٢) علماء الآثار والحفريات

الأثار أن الاستبداد أخفى تاريخ الأديان وجعل أخبار منشئها في ظلام مطبق ، حتى إن أعداء الأديان المتأخرين أمكنهم أن ينكروا أساسا وجود موسى وعيسى عليهما السلام ، كما شتم الاستبداد في المسلمين تاريخ آل البيت عليهم الرضوان ، الأمر الذي تولد عنه ظهور الفرق التي تشيعت لهم كالإمامية والإسماعيلية والزيدية والحاكمية وغيرهم .

والخلاصة أن البدع التي شوشت الإيمان وشوهت الأديان تكاد كلها تتسلسل بعضها من بعض وتتولد جميعها من غرض واحد هو المراد ، ألا وهو الاستبعاد .

والناظر المدقق في تاريخ الإسلام يجد للمستبدين من الخلفاء والملوك الأولين وبعض العلماء الأعاجم وبعض مقلديهم من العرب المتأخرين أقوالا افتروها على الله ورسوله ، تضليلا للأمة عن سبيل الحكمة ، يريدون بها إطفاء نور العلم وإطفاء نور الله ، ولكن أبى الله إلا أن يتم نوره ، فحفظ للمسلمين كتابه الكريم الذي هو أساس العلوم وكنز الحكم من أن تمسه يد التحريف ، وهي إحدى معجزاته ، لأنه قال فيه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) فما مسه المتأفقون إلا بالتأويل . وهذا أيضا من معجزاته ، لأنه أخبر عن ذلك في قوله : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ (آل عمران : ٧) .

والجنى أمثل للمطالعين ما فعله الاستبداد في الإسلام بما حجب على العلماء الحكماء من أن يفسروا قيسى الألاء والأخلاق من القرآن تفسيراً مدققاً ، لأنهم كانوا يخافون مخالفة رأى بعض الغفلة السالفين أو بعض المتأفقين المقربين المعاصرين ، فيكفرون فيقتلون . وهذه مسألة إعجاز القرآن وهي أهم مسألة في الدين لم يقدروا أن يوفروا حقها من البحث ، واقتصروا على ما قاله فيها بعض السلف قولاً مجملاً من أنها قصور الطائفة عن الإتيان بمثله في فصاحتها وبلغتها . وأنه أخبر عن أن الروم من بعد عليهم سيغلبون ، مع أنه لو فتح للعلماء ميدان التدقيق وحرية الرأي والتأليف كما أطلق عنان التحريف لأهل التأويل والحكم لأظهر وأقوى آيات القرآن ألوف آيات من الإعجاز ، ولو أنوا فيه كل يوم آية لتحجده مع الحسان واحداً من نهر من (علي) ^(١) إعجازه بصدق قوله : « ولا رطب ولا

يأبى إلا في كتاب مبين ﴿ (الأنعام : ٥٩) ، ولجعلوا الأمة تؤمن بآعجازه عن برهان وعيان لا مجرد تسليم وإذعان .

ومثال ذلك أن العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا ، والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورد به التصريح أو التلميح في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً ، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه . ومن ذلك أنهم قد كشفوا أن مادة الكون هي الأثير ، وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ (فصلت : ١١) . وكشفوا أن الكائنات في حركة دائمة دائبة والقرآن يقول : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ﴾ (يس : ٣٣) . إلى أن يقول : ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ (يس : ٤٠) .

وحققوا أن الأرض مفتتحة في النظام الشمسي والقرآن يقول : ﴿ أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ﴾ (الأنبياء : ٣٠) .

وحققوا أن القمر منبثق من الأرض والقرآن يقول : ﴿ أولم يروا أنا أنات الأرض نقصها من أطرافها ﴾ (الرعد : ٤١) . ويقول : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ (القمر : ١) .

وحققوا أن طبقات الأرض سبع والقرآن يقول : ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ﴾ (الطلاق : ١٢) .

وحققوا أنه لو لا الجبال لاقتضى الثقل الثوعى أن تميد الأرض ، أى تخرج في دورتها ، والقرآن يقول : ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ﴾ (النحل : ١٥) . وكشفوا أن سر التركيب الكيميائى ، بل والمعنوى ، هو تخالف نسبة المقادير وضيعلها ، والقرآن يقول : ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ (الرعد : ٨) .

وكشفوا أن للجسمادات حياة قائمة بماء التبلور والقرآن يقول : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ (الأنبياء : ٣٠) .

وحققوا أن العالم العضوى ، ومنه الإنسان ، ترقى من الجسماد والقرآن يقول :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ (المؤمنون : ١٢).

وكشفوا ناموس اللقاح العام في النبات والقرآن يقول : ﴿ خلق الأزواج كلها مما
ثبت الأرض ﴾ (يس : ٣٦). ويقول : ﴿ فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ﴾ (طه :
٥٣). ويقول : ﴿ اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ (الحج : ٥). ويقول :
﴿ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ (الرعد : ٣).

وكشفوا طريقة إمساك الظل ، أي التصوير الشمسي ، والقرآن يقول ﴿ ألم تر إلى
ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ﴾ (الفرقان :
٤٥).

وكشفوا تسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء والقرآن يقول ، بعد ذكره
الدواب والجواري بالريح : ﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ (يس : ٤٢) .

وكشفوا وجود المكروب وتأثيره ، والجندري وغيره من الأمراض ، والقرآن
يقول : ﴿ وأرسل عليهم طيرا أبابيل ﴾ (الفيل : ٣) ، أي متتابعة مجتمعة ﴿ ترميهم
بحجارة من سجيل ﴾ (الفيل : ٤) ، أي من طين المستنقعات اليابس .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس
الطبيعية . وبالقياس على ما تقدم ذكره يقتضى أن كثيرا من آياته سينكشف سرها في
المستقبل في وقتها المرمون ، تهديدا لإعجازه بإخباره عما في الغيب ما دام الزمان
وما كثر الجديدان ، فلابد أن يأتي يوم يكشف العلم فيه أن الحماذات أيضا تنمو
باللقاح كما تشير إلى ذلك آية ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ (الذاريات : ٤٩) .

الاستبداد والعلم

ما أشبه المستبد في سببه إلى رعيته بالوصي الخائن القوي، يتصرف في أموال الأيتام وأنفسهم كما يهوى ما داموا ضعافا قاصرين، فكما أنه ليس من صالح الوصي أن يبلغ الأيتام رشدهم، كذلك ليس من غرض المستبد أن تنتور الرعية بالعلم.

لا يخفى على المستبد، مهما كان غيبيا، أن لا استعباد ولا اعتساف إلا ما دامت الرعية حمقاء تخبط في ظلامه جهل وتيه عماء. فلو كان المستبد طيرا لكان خفافشا يصطاد هزوم العوام في ظلام الجهل، ولو كان وحشا لكان ابن أوى يتلفظ دواجن الحواضر في غشاء الليل، ولكنه هو الإنسان يصيد عماله جاهله.

العلم قيسة من نور الله وقد خلق الله النور كشافا مبصرا ولاذا للحرارة والقوة، وجعل العلم مثله وصاحا للحبر قضا حائلا للشر، يولد في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة. العلم نور والظلم ظلام ومن طبيعة النور تهديد الظلام، والمتأمل في حالة كل رئيس ومروءس يرى كل سلطة الرئاسة تقوى وتضعف بنسبة نقصان علم المروءس وزيادته.

المستبد لا يخشى علوم اللغة، تلك العلوم التي بعضها يقوم اللسان. وأكثرها هزل وهذيان يضئع به الزمان. نعم لا يخاف علم اللغة إذا لم يكن وراء اللسان حكمة حماس تعقد الأتوية، أو سحر بيان يحل عقد الجيوش، لأنه يعرف أن الزمان

ضنين بأن تلد الأمهات كثيرا من أمثال الكميت^(١) وحسان^(٢) أو مونتسكيو^(٣) وشيلار^(٤).

وكذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد، المستحصنة ما بين الإنسان وربه، لا اعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة، وإنما يتلهى بها المتهوسون للعلم، حتى إذا ضاع فيها عمرهم، وامتلات بها^(٥) أدمغتهم، وأخذ منهم القروور ما أخذ، فعازوا لا يرون علما غير علمهم، فحينئذ يأمن المستبد منهم كما يؤمن شر السكران إذا حمس. على أنه إذا نبغ منهم البعض ونالوا حرمة بين العوام لا يعدم المستبد وسيلة لاستخدامهم في تأييد أمره ومجاراة هواه في مقابلة أية بضحك عليهم بشيء من التعظيم ويسد أفواههم بملقنيمات من قشات مائدة الاستبداد. وكذلك لا يخاف من العلوم الصناعية تحضا، لأن أهلها يكونون مسلمين صغار النفوس، صغار الهسم، يشترتهم المستبد بقليل من المال والإعزاز، ولا يخاف من الماديين لأن أكثرهم مبتلون بإيثار النفس، ولا من الرياضيين لأن غالبهم قصار النظر.

ترتعد فرائض المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية، والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع، والسياسة المدنية، والتاريخ المفصل، والخطابة الأدبية، ونحو ذلك من العلوم التي تكبر النفوس وتوسع العقول وتعزف الإنسان ما حقوقه، وكم هو مغبون وكيف الطلب، وكيف النوال، وكيف الحفظ. وأخوف ما يخافه المستبد من أصحاب هذه العلوم المندفعين منهم لتعليم الناس بالخطابة أو

(١) الكميت بن زيد الأنصاري (٦٧٩-٧٤٣م) كوفي، اشتهر بالشعر والخطابة، وكان شيعيا يهجم أئمة بني، ويتخذ للعب المضربين ضد العرب القحطانيين.

(٢) حسان بن النعمان (المتوفى سنة ٧٠٠م) من قواد دولة الدولة الأموية. حفل كثيرا من الانتصارات ضد البيزنطيين والبربر.

(٣) شارل لوى دي سكوندا (١٦٨٩-١٧٥٥م) كاتب وفيلسوف فرنسي، نقد المجتمع الأوروبي، وبعد كتابه «روح القوانين» من أشهر المؤلفات التي تناولت في عصره فلسفة الحكم وأشكال الحكومات.

(٤) هناك: شيلار، ف. داند (١٨٦٤-١٩٣٧م) الفيلسوف الإنجليزي، الذي اشتهر بدعوته لنمذجة الإنسان. وهناك أيضا: شيلار: فريدريخ فون (١٧٥٩-١٨٠٢م) الأديب الألماني، وهو شاعر ومسرحي وفيلسوف، اشتهر بزعزعة المثل، ومقاومة الطغیان.

(٥) في الأصل: المفتح: امتلاتها.

الكتابية، وهم المعبر عنهم في القرآن بالصالحين والمصلحين في نحو قوله تعالى : ﴿أَنْ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (سورة الأنبياء : ١٠٥)، وفي قوله : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مَظْلُومُونَ﴾^(١) (سورة هود : ٦١٧)، وإن كان علماء الاستبداد يفسرون مادة الضلاح والإصلاح بكثرة التعبد كما حولوا معنى مادة الفساد والإفساد من تخريب نظام الله إلى التشويش على المستبدين .

والخلاصة أن المستبد يخاف من هؤلاء العلماء العاملين الراشدين المرشدين ، لا من العلماء المنافقين أو الذين (حشوا)^(٢) رؤوسهم محفوظات كثيرة كأنها مكتبات مقلدة .

كما يبغض المستبد العلم لنتائجه يبغضه أيضا لذاته ، لأن للعلم سلطانا أقوى من كل سلطان ، فلا بد للمستبد من أن يستحقّر نفسه كلما وقعت عينه على من هو أرقى منه علما . ولذلك لا يحب المستبد أن يرى وجه عالم عاقل يفوقه فكرا ، فإذا اضطّر لمثل الطبيب والمهندس يختار الخبي المتصاغر المتعلق . وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله : «فاز المتعلقون» ، وهذه طبيعة كل المتكبرين بل في غالب الناس ، وعليها مبنى ثنائهم على كل من يكون مسكينا خاملا لا يرجى خبير ولا لشر .

ويستج مما تقدم أن بين الاستبداد والعلم حزبا دائمة وطرادا مستمرا : يسعى العلماء في تنوير العقول ويجهتد المستبد في إطفاء نورها ، والطرفان يتجاذبان العوام . ومن هم العوام ؟ هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا ، وإذا حافوا استسلموا ، كما أنهم هم الذين متى علموا قالوا ، ومتى قالوا فعلوا .

العوام هم قوة المستبد وقوته ، بهم وعليهم يصول ويظول ، يأسره فيتهللون لشوكته ، ويغضب أموالهم ، فيحمدونه على إبقائه حياتهم ، ويهينهم فيثنون على رفعة ، ويغري بعضهم على بعض ، فيفتخرون بسياسته ، وإذا أسرف في أموالهم ، يقولون : كرمنا ، وإذا قتل منهم ولم يمثل ، يعدونه رحيمنا ، ويسوقهم إلى خطر

(١) الآية المذكورة هكذا في الأصل (وما كنا ليهلك القرى وأهلها مظلون) وهو خطأ ، التزمنا تصحيح أمثاله دون تنبيه في التعليقات .

(٢) في الأصل : حشو

الموت ، فيطيعونه حذراً اتوبيخ ، وإن نقم عليهم منهم بعض الأبناء قاتلوهم كأنهم بغاة .

والحاصل أن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل والغباوة ، فإذا ارتفع الجهل وتنور العقل زال الخوف ، وأصبح الناس لا يتقادون طبعاً لغير منافعهم ، كما قيل : العاقل لا يخدم غير نفسه ، وعند ذلك لا بد للمستبد من الاعتزال أو الاعتدال . وكم أجبرت الأمة ، بترقيتها ، المستبد اللئيم على الترقى معها ، والانقلاب ، على رغم طبعه ، إلى وكيل أمين يهاب الحساب ، ورئيس عادل يخشى الانتقام ، وأب حليم يتلذذ بالتحاب . وحينئذ تنال الأمة حياة رضية هنية ، حياة رخاء وثناء ، حياة عز وسعادة ، ويكون حظ الرئيس من ذلك رأس الحظوظ . بعد أن كان في دور الاستبداد أشقى العباد ، لأنه كان على الدوام ملحوظاً بالبعضاء ، محاطاً بالأخطار ، غير أمين على رياسته ، بل وعلى حياته طرفة غير . ولأنه لا يرى قط أمامه من يسترشده فيما يجهل . لأن الواقف بين يديه مهما كان عاقلاً متيناً ، لا بد من أن يهابه فيضطرب بانه فينشوش فكره ويختل رأيه فلا يهتدى إلى الصواب ، وإن اهتدى فلا يجسر على التصريح به قبل استطلاع رأى المستبد ، فإن رآه متصلياً فيما يراه فلا يسعه إلا تأييده ، رشداً كان أو غيياً ، وكل مستشار غيره يدعى أنه غير هباب فهو كذاب . والقول الحق أن الصدق لا يدخل قصور الملوك ، بناء عليه لا يستفيد المستبد قط من رأى غيره ، بل يعيش في ضلال وتردد وعذاب وخوف وكفى بذلك انتقاماً منه على استعباد الناس وقد خلقهم ربهم أحراراً .

إن خوف المستبد من نتيجة رعيته أكثر من خوفهم بأسه ، لأن خوفه ينشأ عن علمه بما يستحقه منهم ، وخوفهم ناشئ عن جهل . وخوفه عن عجز حقيقته فيه ، وخوفهم عن توهم التخاذل فقط . وخوفه على فقد حياته وسلطانه ، وخوفهم على لقيسات من الثبات وعلى وطن يألنون غيره في أيام ، وخوفه على كل شيء تحت السماء ملكه ، وخوفهم على حياة تعيسة فقط .

وكلما زاد المستبد ظلماً واعتسافاً زاد خوفه من رعيته ، وحتى من حاشيته وحتى من هواجسه وخيالاته . وأكثر ما تختتم حياة المستبد بالجنون التام . قلت : التام ، لأن المستبد لا يخلو من الحمق قط ، لتفرقه من البحث عن الحقائق . وإذا صادف وجود

مستبد غير أحيق فيسارعه الموت قهرا إذا لم يسارعه الجنون أو العته. وقلت: إنه يخاف من حاشيته، لأن أكثر ما يبعث بالمستبدين حواشيهم، لأن هؤلاء هم أشقى خلق الله حياة، يرتكبون كل جريمة وفظيعة لحساب المستبد الذي يجعلهم يسمون ويصيحون مخبولين مضروعين يجهدون الفكر في استطلاع ما يريد منهم فعلة بدون أن يطلب أو يصرح. فكم يتقم عليهم ويهينهم لمجرد أنهم لا يعلمون الغيب، ومن ذا الذي يعلم الغيب؟ الأنبياء والأولياء؟ وما هؤلاء إلا أشقياء. استغفرك اللهم لا تعلم غيبك نبي ولا ولي، ولا يدعي ذلك إلا دجال، ولا يظن صدقه إلا المغفل، فيألك اللهم قلت وقولك الحق: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (سورة الجن: ٢٦) وأفضل أنبيائك يقول: «لو علمت الخير لاستكثرت منه».

من قواعد المؤرخين المدققين أن أحدهم إذا أراد الموازنة بين مستبدين كـ «نيرون» و«تيموار» مثلا، يكتفي أن يوازن درجة ما كانا عليه من التحذر والتحفظ. وإذا أراد المقاضلة بين عادلتين كـ «أوسروان» و«عمر الفاروق»، يوازن بين مرتبتي أمنهما في قوميتهما.

لما كانت أكثر الديانات مؤسسة على مبدأي الخير والشر كالنور والظلام والشمس والرحل، والعقل والشیطان، رأت بعض الأمم الغابرة أن أضرب شيء على الإنسان هو الجهل، وأضرب آثار الجهل هو الخوف، فعملت هيكلًا مخصصًا للخوف بعد اتقاء أشده.

قال أحد المحررين السياسيين: إنني أرى قصر المستبد في كل زمان هو هيكل الخوف عنه؛ فالملك الجبار هو المعبود، وأعوانه هم الكهنة، ومكتبته هي المذبح المقدس، والأقلام هي السكاكين، وعبارات التعظيم هي الصلوات، والناس هم الأسرى الذين يقدمون قربان الخوف. وهو أهم التواضيع الطبيعية في الإنسان، والإنسان يقرب من الكمال في نسبة ابتعاده عن الخوف، ولا وسيلة لتخفيف الخوف أو نفيه غير العلم بحقيقة المخيف منه، لينكشف للإنسان أن لا محل فيه للخوف منه. وهكذا إذا زاد علم أفراد الرعية بأن المستبد أمرٌ عاجز فشلتهم زال خوفهم منه وتناضوه حقوقهم.

ويقول أهل النظر: إن خير ما يستدل به على درجة استبداد الحكومات هو تغاليها

في شأن الملوك وفخامة القصور وعظمة الحفلات ومراسيم التشریفات وعلاصم
الأيهة ونحو ذلك من التمیبهات التي یسترهب بها الملوك وعبادهم عوضاً عن العقول
والفداة، وهذه التمیبهات یلجأ إليها المستبد كما یلجأ قلیل العز للتكبر، وقلیل
العلم للتصوف، وقلیل الصدق للیمن، وقلیل المال لرینة الناس.

ویقولون: إنه كذلك یستدل على عراقة الأمة فی الاستعباد أو الحرية باستنطاق
لغتها، هل هی قلیلة الفاظ التعظیم كالعربیة مثلاً؟ أم هی غنیة فی عبارات الخضوع
كالفارسیة؟ وكذلك اللغة التي لیس فیها بین المتخاصمین: أنا وأنت، بل: سیدی
وعبدکم؟!

والخلاصة أن الاستبداد والعلم ضدان متغالبان، فكل إدارة مستبدة تسعى
جهدها فی إطفاء نور العلم، وحصر الرعیة فی حالک الجهل. والعلماء الحكماء
الذین ینبتون أحياناً فی مضایق صخور الاستبداد یسعون جهدهم فی تنویر أفكار
الناس. والغالب أن رجال الاستبداد یطاردون رجال العلم ویكفون بهم، فالسعيد
منهم من یتمكن من مهاجرة دياره. وهذا سبب أن كل الأنبياء العظام علیهم الصلاة
والسلام وأكثر العلماء الأغلام والأذباء النبلاء تقلبوا فی البلاد وماتوا غرباء.

إن الإسلامیة أول دین حض على العلم، وكفی شاهداً أن أول كلمة أترت من
القرآن هی الأمر بالقراءة أمراً مكرراً، وأول منة أجلها الله وأمن بها على الإنسان
هی أنه علمه بالقلم، علمه به ما لم یعلم. وقد فهم السلف الأول من مغزی هذا
الأمر وهذا الامتنان وجوب تعلم القراءة والكتابة على كل مسلم، وبذلك عمت
القراءة والكتابة فی المسلمین أو كادت تعم، وبذلك صار العلم فی الأمة خراعماً
للكل لا یختص به رجال الدین أو الأشراف كما كان فی الأمم السایقة، وبذلك انتشر
العلم فی سائر الأمم أخذاً عن المسلمین ولكن قاتل الله الاستبداد الذي استهان
بالعلم حتی جعله كالسلعة یعطى ویمنح للأمیین ولا یجوز أخذ على الاعتراض.
أجل، قاتل الله الاستبداد الذي رجع بالأمة إلى الأمیة فالتقى آخرها بأولها، ولا
حول ولا قوة إلا بالله!

قال المدققون: إن أخوف ما یخافه المستبدون الغریبون من العلم أن یعرف الناس
حقیقة أن الحرية أفضل من الحیاة، وأن یعرقوا النفس وعزها، والشرف وعظمتها.

والحقوق وكيف تحفظ، والظلم وكيف يرفع، والإنسانية وما هي وظائفها، والرحمة وما هي لذاتها.

أما المستبدون الشرقيون فأفتدتهم هراء ترتجف من صولة العلم وكان العلم نار وأجسامهم من بارود. المستبدون يخافون من العلم حتى من علم الناس معنى كلمة «لا إله إلا الله» ولماذا كانت أفضل الذكر؟ ولماذا بنى عليها الإسلام؟ بنى الإسلام، بل والأديان كافة على لا إله إلا الله، ومعنى ذلك أنه لا يعبد حقاً سواه أى سوى الصانع الأعظم، ومعنى العبادة والخضوع ومنها لفظة العبد، فيكون معنى لا إله إلا الله: «لا يستحق الخضوع شيء غير الله». وما أفضل تكرار هذا المعنى على الذاكرة أثناء الليل وأطراف النهار، تحذراً من الوقوع فى ورطة شيء من الخضوع لغير الله وحده. فهل، والحالة هذه يناسب غرض المستبدين أن يعلم عبيدهم أن لا سيادة ولا عبودية فى الإسلام، ولا ولاية فيه ولا خضوع، إنما المؤمنون بعضهم أولياء بعض؟ كلا لا يلائم ذلك غرضهم، وربما عدوا كلمة «لا إله إلا الله» شتاً لهم! ولهذا كان المستبدون، وما زالوا، من أنصار الشرك وأعداء العلم.

إن هذا العلم لا يناسب صغار المستبدين أيضاً كخدمة الأديان المتكبرين، وكالآباء الجهلاء، والأزواج الحمقاء، كرهساء كل الجمعيات الضعيفة. والحاصل أنه ما انتشر نور العلم فى أمة قط إلا وتكسرت فيها قيود الأسر، وساء مصير المستبدين من رؤساء سياسة أو رؤساء دين.

* * *

الاستبداد والمجد

من الحكم البالغة للمتأخرين قولهم: «الاستبداد أصل لكل فساد»، ومبنى ذلك أن البحث المدقق في أحوال البشر وطبائع الاجتماع كشف أن للاستبداد أثرًا سيئًا في كل واد. وقد سبق أن الاستبداد يضغط على العقل فيفسده، ويلعب بالدين فيفسده، ويحارب العلم فيفسده، وإلى الآن أبحث في أنه كيف يغالب الاستبداد المجد فيفسده ويقيم مقامه المتمجد.

المجد هو إحراز المرء مقام خيب واحترام في القلوب، وهو مطلب طبيعي شريف لكل إنسان، لا يترفع عنه نبي أو زاهد، ولا ينحط عنه دني أو خامل. للمجد لذة روحية تقارب لذة العبادة عند المتفانين في الله، وتعادل لذة العلم عند الحكماء، وتربو على لذة امتلاك الأرض مع ثمرها^(١) عند الأمراء، وتزيد على لذة مفاجأة الإثراء عند الفقراء، ولذا يراحم المجد في النفوس منزلة الحياة.

وقد أشكل على بعض الباحثين أي الحرصين أقوى: حرص الحياة أم حرص المجد؟ والحقيقة التي عول عليها المتأخرون وميزوا بها تخطيط ابن خلدون هي التفضيل. وذلك أن المجد مفضل على الحياة عند الملوك والقواد وظيفته، وعند النجباء والأحرار حمية، وحب الحياة ممتاز على المجد عند الأسراء والأذلاء طبيعة، وعند الجبناء والنساء ضرورة. وعلى هذه القاعدة يكون أنمة آل البيت عليهم السلام معذورين في إقتاتهم بأنفسهم في تلك المهالك، لأنهم لما كانوا نجباء أحراراً فحميتهم جعلتهم يفضلون الموت كراماً على حياة ذل مثل حياة ابن خلدون الذي

(١) في الأصل المنعج لثمرها وما أشبهه من طعمة الأئمة.

وخرج "قيس" من مجلس "الوليد" مغضباً يقول: أتريد أن تكون جباراً؟ والله إن نعال الصماليك لأطول من سيفك!

وقيل لأحد الأباة: ما فائدة سعيك غير جلب الشقاء على نفسك؟ فقال: ما أحلى الشقاء في سبيل تنغيص الظالمين. وقال آخر: على أن آفي بوظيفتي وما غلى ضمان القضاء. وقيل لأحد النبلاء: لماذا لا تبني لك داراً؟ فقال ما أصنع فيها وأنا المقيم على ظهر الجواد أو في السجن أو في القبر؟ وهذه ذات النطاقين «أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها» وهي امرأة عجوز تودع ابنها بقولها: إن كنت على الحق فاذهب وقاتل الحجاج حتى تموت! وهذا مكناهون، رئيس جمهورية فرنسا، استبد في أمر واحد فدخل عليه صديق غامبت^(١) وهو يقول: الأمر للأمة لا اليك. فاعتدل أو اعتزل وإلا فانت المحذول المهان الميت!

وأخاصل أن المجد هو المجد، محبوب للنفس لا تقشاً تسعى وراءه، وترقى مراقبه، وهو ميسر في عهد العدل لكل إنسان على حسب استعداده وحمته. وينحصر تحصيله في زمن الاستبداد بمقاومة الظلم على حسب الإمكان.

ويقابل المجد من حيث مبداء التمجيد، وما هو التمجيد؟ وماذا يكون التمجيد؟ التمجيد لفظ هائل المعنى، ولهذا أراني أتعثر بالكلام وأتلعث في الخطاب، لا سيما من حيث أخشى مساس إحساس بعض المطالعين، إن لم يكن من جهة أنفسهم فمن جهة أجدادهم الأولين، فأناشدهم الوجدان والحق المهان، أن يتجردوا ذفقتين من النفس وحواسها، ثم هم مثلي ومثل سائر الجائين على الإنسانية لا يعدمون تأويلاً، وإنني أعلل النفس بقبولهم تهويني هذا فأعلق وأقول:

التمجد حاصل بالإدارات المستبدة، وهو القريب من المسيد بالفعول كالأعوان والعمال، أو بالقوة كالملقيين بنحو دوق وبارون، والمخاضين بنحو رب العزة ورب المصولة أو التوسمين بالنياشين أو المطوقين بالحمائل. وبتعريف آخر: التمجيد هو أن ينال المرء جلوة تار من جهنم كبرياء المستبد ليحرق بها شرف المساواة في الإنسانية! وهو صعب أجلى هو أن ينقل المرء من قبل الجبار بيروهن به على أنه جلال

(١) رئيس وزراء فرنسا، شارل إنگلتر في الناصر على استقلال مصر على عهد الثورة العربية (١٨٨١).

في دولة الاستبداد، أو يعلق على صدره وساعا مشعرا بما وراءه من الوجدان المستبيح للعدوان، أو يتزين بسيور مزر كشة تنبئ بأنه صار مخشيا أقرب إلى النساء منه إلى الرجال. وبعبارة أوضح وأخصر: هو أن يصير الإنسان مستبدا صغيرا في كنف المستبد الأعظم.

قلت: إن التمجيد خاص بالإدارات الاستبدادية، وذلك لأن الحكومة الحرة التي تمثل عواطف الأمة تأبى كل الإياء إخلال التساوي بين الأفراد، إلا لفضل حقيقي. فلا ترفع قدر أحد منها إلا رفعا صوريا في أثناء قيامه في خدمتها، أي الخدمة العمومية، وذلك تشويقا له على التفاني في الخدمة، كما أنها لا تميز أحدا منها بوسام أو تشرفه بلقب إلا ما كان علميا أو ذكرى لخدمة مهمة وفقه الله إليها. ويمثل هذا يرفع الله الناس بعضهم فوق بعض درجات في القلوب لا في الحقوق.

وهذا لقب اللوردية مثلا عند الإنكليز هو من بقايا عهد الاستبداد، ومع ذلك لا يناله عندهم غالبا إلا من يخدم أمته خدمة عظيمة، ويكون من حيث أخلاقه وثروته أهلا لأن يخدمها خدمات مهمة غيرها. ومن المقرر أنه لا اعتبار للورد في نظر الأمة إلا إذا كان مؤسسا لأرثا، أو كانت الأمة تقرأ في جبهته سطرا محررا بقلم الوطنية ويمداد الشهامة ممضيا بدمه، يقسم فيه بشرفه أنه ضميم بشروته وخيائه ناموس الأمة أي قلوبها الأساسي، يحفظ على روحها أي حريتها.

التمجيد لا يكاد أثر يوجد له في الأمم القديمة إلا في دعوى الألوهية وما بمعناها من نفع الناس بالأنفاس، أو في دعوى التجاية بالنسب التي يهول بها الأصلاء نسل الملوك والأمراء. وإنما نشأ التمجيد باللقاب والشارات في القرون الوسطى وراج سوقه في القرون الأخيرة، ثم قامت فتنة الحرية تنغني بالمساواة وتغسل أدرانها على حسب قوتها وطاقتها، ولم تبلغ غايتها إلى الآن في غير أمريكا.

المتمجدون يريدون أن يخدموا العامة، وما يخدمون غير تسائهم اللاتي يتحفن^(١) بين عجائز الحي بأنهم كبار العقول كبار النفوس أحرار في مشورتهم لا يزاح لهم نقاب، ولا تصفع منهم رقاب، فيحوجهم هذا المظهر الكاذب لتحمل

(١) المرأة الفحفاحة. هنا: كثيرة الكلام

الإساءات والإهانات التي تقع عليهم من قبل المستبد، بل تحوجهم للحرص على كتمها، بل على إظهار عكسها، بل على مقاومة من يدعي خلافتها، بل على تغليب أفكار الناس في حق المستبد وإيهادهم عن اعتقاد أن من شأنه الظلم.

وهكذا يكون المتمجدون أعداء للعدل، أنصارا للجرور، لا دين ولا وجدان ولا شرف ولا رحمة، وهذا ما يقصده المستبد من إيجادهم والإكثار منهم ليتمكن بواسطتهم من أن يغرر الأمة على (ضرار نفسها تحت اسم منفعتها، فيسوقها مثلا لحرب اقتضاها محض التجبر والعدوان، على الجيران، فيوهبها أنه يريد نصرة الدين، أو يسرف بالملايين من أموال الأمة في ملذاته وتأييد استبداده باسم حفظ شرف الأمة وأبهة المملكة، أو يستخدم الأمة في التنكيل بأعداء ظلمه باسم أنهم أعداء لها، أو يتصرف في حقوق المملكة والأمة كما يشاؤه هو باسم أن ذلك من مقتضى الحكمة والسياسة.

والخلاصة أن المستبد يتخذ المتمجدين سماسرة بتغيير الأمة باسم خدمة الدين، أو حب الوطن، أو توسيع المملكة، أو تحصيل منافع عامة، أو مسئولية الدولة، أو الدفاع عن الاستقلال، والحقيقة أن كل هذه الدواعي الفخيمة العنوان في الأسماع والأذهان ما هي إلا تخيل وإيهام يقصد بها رجال الحكومة تهيج الأمة وتضليلها، حتى إنه لا يستثنى منها الدفاع عن الاستقلال، لأنه ما الفرق على أمة مأسورة بزيد أن يأسرها عمرو؟ وما مثلها إلا الدابة التي لا يرحمها راكب مطمئن، مالكا كان أو غاصبا!

المستبد لا يستغنى عن أن يستمجد بعض أفراد من ضعاف القلوب الذين هم كبقرة الجنة لا ينطحون ولا يرمحون، يتخذهم كنموذج البائع الغشاش، على أنه لا يستعملهم في شيء من مهامه فيكونون لديه كمصحف في خيابة أو سبحة في يده رثيق، وربما لا يستخدم أحيانا بعضهم في بعض الشؤون تغليطا لأذهان العامة في أنه لا يعتمد استخدام الأراذل والأسافل فقط، ولهذا يقال دولة الاستبداد دولة بله وأوغاد.

المستبد يجرب أحيانا في المناصب والمراتب بعض العقلاء الأذكياء أيضا اختاراً منه بأنه يقوى على تليين طبيئته وتشكيله بالشكل الذي يريد، فيكونون له أعوانا

لحيثاء ينفعونه بدهائهم، ثم هو يعد التجربة إذا خاب ويئس من إفسادهم يتبادر إلى إبعادهم أو ينكل بهم. ولهذا لا يستقر عند المستبد إلا الجاهل العاجز الذي يعبد من دون الله، أو الخبيث الخائن الذي يرضيه ويغضب الله.

وهنا أتبه فكر المطالعين إلى أن هذه الفئة من المعتلاء الأمناء بالجملة، الذين يذوقون عسيلة مجد الحكومة وينشطون لخدمة الأفة وتبيل مجد النبالة، ثم يضرب على يدهم لمجرد أن بين أضلاعهم قيسة من الإيمان وفي أعينهم بارقة من الإنسانية. هي الفئة التي تتكهرب بعداوة الاستبداد وينادي أفرادها بالإصلاح. وهذا الانقلاب قد أعيا المستبدين لأنهم لا يستغنون عن التجربة ولا يأمنون هذه المغية. ومن هنا نشأ اعتمادهم في التجربة غالباً على العريقين في خدمة الاستبداد، أو الوارثين من آبائهم وأجدادهم الأخلاق المرضية للمستبدين، ومن هنا ابتدأت في الأمم نغمة التمجيد بالأصالة والأنساب. والمستبدون المحنكون يطيلون أمد التجربة بالمناصب الصغيرة فيستعملون قاعدة الترقى مع التراخي ويسمون ذلك برعاية قاعدة القدم، ثم يختمون التجريب بإعطاء المتسرع خدمة يكون فيها رئيساً مطلقاً ولو في قرية. فإن أظهر مهارة في الاستبداد، وذلك ما يسمونه حكمة الحكومة، فيها ونعمت. وإلا قالوا عنه: هذا حيوان يا ضيعة الأمل فيه.



إن للأصالة مشاكلة قوية للمجد والتمجد، فلا بد أن نبحث فيها قليلاً ثم نعود لموضوع المستبد وأعوانه المتمجدين فأقول:

الأصالة صفة قد يكون لها بعض المزايا من حيث الأميال التي يرثها الآباء من الآباء. ومن حيث التربية التي تكون مستحكمة في البيت ولو رياء. ومن حيث إن الأصالة تكون مقرونة بشيء من الثروة المعينة على مظاهر الشهامة والرحمة، ومن حيث إن الثروة تعين أهل البيت على إخفاء بعض رذائلهم عن أولادهم. ومن حيث إنها مدعاة غالباً للتمثل بالأقرباء مشوقة للتفوق والتميز، ومن حيث تقويتها العلاقة بالأمّة والوطن خوفاً مذلة الاغتراب. ومن حيث إن أهلها يكونون منظوريين دائماً فيتحاسنون المعائب والنقائص بعض التحاسن.

وبيوت الأصالة تنقسم إلى ثلاثة أنواع: بيوت علم وفضيلة، وبيوت مال وكرم،

وبيوت ظلم وإمارة . وهذا الأخير هو القسم الأكثر عددا والأهم موقعا . وهم . كما سبقت الإشارة إليه ، منطرح نظير المستبد في الاستعانة وموضع ثقته ، وهم الجند الذين يجتمعون تحت لوائه بسهولة ، وربما يكفيه أن يضحك في وجوههم ضحكة . فلننظر ما نصيب أهل هذا القسم من تلك المزايا الموروثة :

هل يرث الابن من جده المؤسس لمجده أمياله في العدالة ولم توجده؟ أم يذب ويشب على غير الترف المصغر للعقول ، المبيت لهم؟ أم يتردى على غير الرقار المضحك الباطل السائد فيما بين العائلة في بيتهم؟ أم يستخدم الثروة في غير الملاذ الجسمية الدنيئة البهيمية وتلك الأبهة الطائوسية الباطلة؟ أم يتمثل بغير أقران السوء المتملقين المنافقين؟ أم لا يستحقر قومه لجهلهم قدر النطفة الملعونة التي خلق منها جنابه؟ أم لا يبعض العلماء الذين لا يقدرونه قدره حسبا هو قائم في مخيلة خيالاته؟ أم يرى لجناحه مقرا يليق به غير مقاعد التحكم ومستراح التأمور؟ أم يستحي من الناس؟ ومن هم الناس؟ ما الناس عند حضرته غير أشباح فيها أرواح خلقت لخدمته!

وهذه حالة الأكثرين من الأصلاء ، على أننا لا نحس حق من نال منهم حظا من العلم وأوتى الحكمة وأراد الله به خيرا فأصابه بنصيب من القهر انخفض به شاموخ أنفه ، قال هؤلاء ، وقليل ما هم ، ينجيون نجاة عظيمة عجيبة ، فيصدق عليهم أنهم قد ورثوا قوة القلب ، ويستعملونها في الخير لا في الشر ، واستنادوا من أنفة الكبرياء الجسارة على العظماء ، وهكذا تتحول فيهم ميزة الشر إلى فائض خير وحسب شامخ من نحو الحنين على الوطن وأهله ، والأثين لمصابه ، والإقدام على العظائم في سبيل القوم . وأمال هؤلاء النوابع النجباء إذا كثروا في أمة يوشك أن يترقى منهم أحاد إلى درجة الخوارق ، فيقدوا أمهم إلى الشجاع والفلاح . ولا غرو فإن اجتماع تقوى النسب وقوة الحسب يفعلا ولا عجب شبه فعل المستبد العادل الذي يشبهه الشرقيون وخصوصا المسلمين ، وإن كان العقل لا يجوز أن يتصف بالاستبداد مع العدل غير الله وحده . ألا قاتل الله الهمة الساقطة التي قد تستغل بالإنسان إلى عدم إعتاب الفكر فيما يطلب هل هو ممكن أم هو محال .

الأصلاء ، باعتبار أكثريتهم ، هم جرثومة البلاء في كل قبيلة ومن كل قبيل . لأن

بنى آدم داموا إخوانا متساوين إلى أن ميزت المصادفة بعض أفرادهم بكثرة النسل فنشأت منها القوات العصبية، ونشأ من تنازعها تميز أفراد على أفراد، وحفظ هذه الميزة أوجد الأصلاء. فالأصلاء في عشيرة أو أمة إذا كانوا متقاربين القوات استبدوا على باقى الناس وأسسوا حكومة أشرف، ومتى وجد بيت من الأصلاء يتميز كثيرا فى القوة على باقى البيوت يستبد وحده ويؤنس الحكومة الفردية المقيدة إذا كان لباقى البيوت بقية بأس، أو المطلقة إذا لم يبق أمامه من يتقيه.

بناء عليه إذا لم يوجد فى أمة أصلاء بالكلية. أو وجد ولكن كان لسواد الناس صوت غالب، أقامت تلك الأمة لنفسها حكومة انتخابية لا وراثة فيها ابتداء، ولكن لا يتوالى بضع متولين إلا ويصير أنسألهم أصلاء يتناظرون، كل فريق منهم يسعى لاجتذاب طرف من الأمة استعدادا للمغالبة وإعادة التاريخ الأول.

ومن أكبر مضار الأصلاء أنهم ينهمكون فى أثناء المغالبة على إظهار الأبهة والعظمة، يسترهبون أعين الناس ويسحرون عقولهم ويتكبرون عليهم. ثم إذا غلب غالبهم واستبد بالأمر لا يتركها الباقيون لألفتهم لذتها ولضاهة المستبد فى نظر الناس. والمستبد نفسه لا يحملهم على تركها بل يدر عليهم المال ويعينهم عليها ويعطيهم الألقاب والرتب وشيئا من التقوى والتسلط على الناس ليتلهم بذلك عن مقاومة استبداده. ولأجل أن يلفوها مديدا فتفسد أخلاقهم فينفر منهم الناس ولا يبقى لهم ملجأ غير بابيه فيصيرون أعوانا له بعد أن كانوا أضدادا.



ويستعمل المستبد أيضا مع الأصلاء سياسة الشد والإرخاء، والمنع والإعطاء، والالتفات والإغضاء، كى لا يبطروا، وسياسة إلقاء القساد وإثارة الشحنة فيما بينهم، كى لا يتفقوا عليه. وتارة يعاقب عفايا شديدا باسم العدالة، إرضاء للعوام، وأخرى يقرنهم بأفراد كانوا يقبلون أذيالهم استكبارا، فيجعلهم سادة عليهم فيركون أذانهم استحقاقا، يقصد بذلك كسر شوكتهم أمام الناس وعصر أئرفهم أمام عظمته. والحاصل أن المستبد يذل الأصلاء بكل وسيلة حتى يجعلهم مترامين دائما بين رجليه كى يتخذهم لحاما لتذليل الرعية. ويستعمل هذه السياسة عينها مع العلماء ورؤساء الأديان الذين متى شتم من أحدهم رائحة الغرور بعقله أو علمه

ينكل به أو يستبدل به الأحمق الجاهل ، إيقاظ له ولا مثاله من كل ظان من أن إدارة الظلم محتاجة إلى شيء من العقل أو الاقتدار فوق مشيئة المستبد ، وبهذه السياسة ونحوها يخلو الجو فيعصف وينسف ويتصرف في الرعية كريس يقالبه المصارع في جو محرق .

المستبد في لحظة جلوسه على عرشه ووضع تاجه الموروث على رأسه يرى نفسه أنه كان إنسانا فصار إلها . ثم يرجع النظر فيرى نفسه في الأمر نفسه أعجز من كل عاجز ، وأنه ما زال ما زال إلا بواسطة من حوله من الأعوان ، فيرفع نظره إليهم فيسمع لسان حالهم يقول له : ما العرش ؟ وما التاج ؟ وما الصرطان ؟ ما هذه إلا أوهام في أوهام . هل يجعلك هذا الريش في رأسك ظا ووسا وأنت غراب ؟ أم تظن الأحجار البراقة في تاجك نجوما ورأسك سماء ؟ أم توهم أن زينة صدرك ومنكبيك أخرجتك عن كونك قطعة طين من هذه الأرض ؟ والله ما مكانك في هذا المقام وساطتك على رقاب الأنعام إلا شعور دتنا وسحرنا وامتهاننا لديتنا ووجداننا وخيانتنا لوطننا وأخواننا ، فانظر أيها الصغير المكبر ، الحقير الموقر ، كيف تعيش معنا !

ثم يلتفت إلى جماهير الرعية المتفرجين . منهم الطائشون المبهلون المسيحون بحمده ، ومنهم المسحورون المبهوتون كأنهم أموات من حين ، ولكن يتجلى في فكره أن تحلل الساكتين بعض أفراد عقلاء أمجاد يخاطبونه بالعيون بأن لنا معاشر الأمة شؤوننا عمومية وكلناك في قضائنا على ما نريد ونبتغي . لا على ما تريد فتبتغي . فإن وقيت حق الوكالة حق لك الاحترام ، وإن مكرت مكرنا وحاققت بك العاقبة ، ألا إن مكر الله عظيم .

وعندئذ يرجع المستبد إلى نفسه قائلا : الأعوان الأعوان . الحملة السدنة أسلحتهم القيادة ، وأردفهم بجيش من الأوغاد ، أحارب بهم هؤلاء العبيد العقلاء ، وبغير هذا الخزم لا يدوم لي ملك كيفما أكون ، بل أبقى أسيرا للعدل ، معرضا للنقاش . متغصا في نعيم الملك ، ومن العار أن يرضى بذلك من يمكنه أن يكون سلطانا جبارا متفردا قهرا .

الحكومة المستبدة تكون طبعها مستبدة في كل فروعها من المستبد الأعظم إلى الشرطي ، إلى الفرائش ، إلى كتائب الشوارع ، ولا يكون كل صنف إلا من أسفل

أهل طبيقته أخلاقاً، لأن الأسافل لا يهتمهم طبعاً الكرامة وحنس السمتة، إنما غاية مسعاهم أن يبرهنوا المخدومين بأنهم على شاكلته، وأنصار لدولته، وشرهون لأكل السقطات من أى كانت ولو بشراً أم خنازير، آباتهم أم أعدائهم، وبهذا يأمنهم المستبد ويأمنونه، فيشاركونهم ويشاركونه. وهذه الفئة المستخدمة يكثر عددها ويقل حنص شددة الاستبداد وخفتة، فكلما كان المستبد حريصاً على العسف احتاج إلى زيادة جيش المتعجدين العائدين له المحافظين عليه، واحتاج إلى مزيد الدقة فى اتخاذهم من أسفل السافلين المجرمين الذين لا أثر عندهم لدين أو ذمة، واحتاج لحفظ النسبة بينهم فى المرتب بالطريقة المعكوسة، وهى أن يكون أسفلهم طباعاً وخصالاً أعلاهم وظيفة وقرباً. ولهذا لابد من أن يكون الوزير الأعظم للمستبد هو النسيم الأعظم فى الأمة، ثم من دونه لؤماً وهكذا تكون مراتب الوزراء والأعدان فى لؤمهم حسب مراتبهم فى التشريعات والقربى منه. وربما يغتر المطالع كما اغتر كثير من المؤرخين البسطاء بأن بعض وزراء المستبدين يتأوهون من المستبد ويتشكون من أعماله ويجهرون بملاحه، فيظهرون لو أنه ساعدهم الإمكان لعملوا وفعلوا واقتدوا الأمة بأموالهم، بل وحياتهم، فكيف والحالة هذه يكون هؤلاء لؤماء؟ بل كيف ذلك وقد وجد منهم الذين خاطروا بأنفسهم، والذين أقدموا فعلاً على مقاومة الاستبداد قتلوا المراد أو بعضه أو هلكوا دونه؟

فجواب ذلك: أن المستبد لا يخرج قط عن أنه خائن خائف محتاج لعصاة تعينه وتحميه، فهو وزير أو وزيراً كرملة لصوص: رئيس وأعوان. فهل يجوز العقل أن يتخبط رفاق من غير أهل الوفاق، وهو هو الذى لا يستوزر إلا بعد تجربة واختبار عمراً طويلاً؟

هل يمكن أن يكون الوزير متخلئاً بالخير حقيقة وبالبشر ظاهراً، فيخدع المستبد بأعماله ولا يخاف من أنه كما نصبه وأعزه بكلمة يعزله ويذله؟

بناء عليه فالمستبد، وهو من لا يجهل أن الناس أعداؤه لظلمه، لا يأمن على يابه إلا من لا يثق به أنه أظلم منه للناس وأبعد منه عن أعدائه. وأما تلوم بعض الوزراء على لؤم المستبد فهو إن لم يكن خداعاً للأمة فهو حق على المستبد، لأنه بخس ذلك المتلوم حقه فقدم عليه من هو دونه فى خدمته بتضحية دينه ووجدانه، وكذلك

لا يكون الوزير أميناً من حصوله المستبد في صحبته ما لم يسبق بينهما وفاق واتفاق
على خيرة الشيطان، لأن الوزير محبوس بالطبع، يتوقع له المزاخمون كل شر،
ويغضبه الناس ولو تبعوا لظالمهم، وهو هدف في كل ساعة للشكايات والوشايات
كيف يكون عند الوزير شيء من التقوى أو الحياء أو العدل أو الحكمة أو المروءة أو
الشفقة على الأمة، وهو العالم بأن الأمة تبغضه وتمقته وتتوقع له كل سوء وتنتسب
بمصائبه، فلا ترضى عنه ما لم يتفق معها على المستبد، وما هو يفاعل ذلك أبداً إلا
إذا يش من إقباله عنده، وإن ينس وقيل فلا يقصد نفع الأمة قط، إنما يريد فتح باب
لمستبد جديد يحسب يستورده فيؤاخره على ورده.

والنتيجة أن وزير المستبد هو وزير المستبد، لا وزير الأمة كما في الحكومات
الدستورية. كذلك القائد يحمل سيف المستبد ليعمده في الرقاب بأمر المستبد لا بأمر
الأمة، بل هو يستعيد من أن تكون الأمة صاحبة أمر، لما يعلم من نفسه أن الأمة لا
تقلد القيادة مثله.

بناء عليه لا يغتر العقلاء بما يتشدد به الوزراء والقواد من الإنكار على الاستبداد
والنفلسف بالإصلاح وإن تلهقوا وإن تأففوا، ولا يتخذون لمظاهر غيرتهم وإن
ناحوا وإن بكوا، ولا يثقون بهم ويوجدانهم مهما صلوا وسبحوا، لأن ذلك كله
ينافي سيرهم وسيرتهم، ولا دليل على أنهم أصبحوا يخالفون ما شبوا وشابوا
عليه. هم أقرب ألا يقصدوا بتلك المظاهر غير إقلاق المستبد وتهديد سلطته
ليشاركهم في استدرار دماء الرعية، أي أموالها. نعم، كيف يجوز تصديق الوزير
والعامل الكبير الذي قد ألف عنراً طويلاً لذة البذخ وعزة الجبروت في أنه يرضى
بالدخول تحت حكم الأمة ويخاطر بعرض سيفه عليها فتحتله أو تكسره تحت
أرجائها؟ أليس هو عضو ظاهر الظاهر الفساد من جسم تلك الأمة التي قتل
الاستبداد فيها كل الأيال الشريفة العالية فأبعدها عن الأنس بالإنسانية، حتى صار
الفلاح التعيس منها يؤخذ للجنودية وهو يبكي، فلا يكاد يلبس كم السيرة العسكرية
ألا ويتلبس بشر الأخلاق فيتمرد على أمه وأبيه، ويتمرد على أهل قريته وذويه،
ويكفر أسنانه عطشا للدماء لا يميز بين أخ أو عدو؟! إن أكابر رجال عهد الاستبداد لا
أخلاق لهم ولا ذمة، فكل ما يتظاهرون به أحيالا من التذمر والتألم يتصدون به غش
الأمة المسكين التي يطمعهم في اتخاذها وانقيادها لهم علمهم بأن الاستبداد القائم

بهم والمستمر بهمتهم قد أعمى أبصارها وبصائرهما، وخدر أعصابها فجعلها كالمصاب ببحران الحمى، فهي لا ترى غير هول وظلام وشدة وآلام، فتن من البلاء ولا تدري ما هو مداويه ولا من أين جاءها لتصده، فتواسيها فشة من أولئك المتعاطفين باسم الدين، يقولون: يا بؤساء، هذا قضاء جاء من السماء لا مرد له، فالواجب تلقيه بالصبر والرضاء، والاتجاء إلى الدعاء، فاربطوا ألبستكم عن اللغو والفضول، واربطوا قلوبكم بأهل السكينة والطمأنينة، وإياكم التدبير، فإن الله غيورة، وليكن وردكم: اللهم اتصر سلطاننا، وأما في أوطاننا، واكشف عنا البلاء، أنت حسبنا ونعم الوكيل! ويغمر الأمة آخرون من المتكبرين بأنهم الأطباء الرحماء، المهتمون بمداواة المرضى، إنما هم يترقبون سنوح القصر، وكلا الفريقين، والله، إما أدنياء جبناء، وإما هم خائنون مخادعون، يريدون التثبيط والتلييد والإمتنان على الظالمين.

من دلائل أن أولئك الأكابر مغرورون مخادعون يظهر من ما لا يبطنون: أنهم لا يستصنعون إلا الأسافل الأراذل من الناس. ولا يميلون لغير المتصلقين المنافقين من أهل الدين، كما هو شأن صاحبهم المستبد الأكبر. ومنها أنه قد برجد فيهم من لا يتنزل لقليل الرشوة أو السرقة. ولكن ليس فيهم العفيف عن الكثير. وكفى بما يتمتعون من الثروات الطائلة، التي لا منبت لها غير الجاه، برهانا فاضحا لو كانوا يستحيون. ومنها أن ليس فيهم غير المستبح المفاخر بمشاركة المستبد في امتصاص دم الأمة. وذلك بأخذهم العطايا الكبيرة، والرواتب الباهظة، التي تعادل أضعاف ما تسمح به الإدارة العادلة لأمشالهم، لأنها إدارة راشدة لا تدفع أجورا زائدة. ومنها أنهم لا يصرفون شيئا ولو سرا من هذا السحت الكثير في سبيل مقاومة الاستبداد الذي يزعمون أنهم أعداؤه، إنما يصرف بعضهم منه شيئا في الصدقات الطفيفة وبناء المعابد سمعة ورياء، وكأنهم يريدون أن يسرقوا أيضا قلوب الناس بعد سلب أموالهم، أو أنهم يرمون الله الأساء ما يتوهمون! ومنها أن أكثرهم مسرفون مبدون، فلا تكفي أحدهم الرواتب المعتدلة التي تمكن أن ينالها أجرة خدمة لا تمن ذمما. ومنها أنه قد يكون أحدهم شحيحا مقترا في نفقاته بحيث يخل في شرف مقامه فلا يصرف نصف أو ربع راتبه، مع أنه يقبضه وإذا على أجر مله لأجل حفظ

شرف المقام العائد لشرف الأمة، وبهذا الشح يكون خائفا ومهيئا. والحاصل أن الأكابر حريصون على أن يبقى الاستبداد مطلقا لتبقى أيديهم معلقة في الأموال.

هذا ولا ينكر التاريخ أن الزمان أوجد نادرا بعض وزراء وأزروا الاستبداد عمرا طويلا ثم ندموا على ما فرطوا فتابوا وأنابوا، ورجعوا لصف الأمة واستعدوا بأمورهم وأنفسهم لإنقاذها من داء الاستبداد. ولهذا لا يجوز اليأس من وجود بعض أفراد من الوزراء والقواد عريقين في الشهامة، فيظهر فيهم سر التراثة ولو بعد بطون أو بعد الأربعين وربما السبعين من أعمارهم ظهورا بينا تاللا في منحيا صاحبه شريا صدق النجاة. ولا ينبغي لأمة أن تتكل على أن يظهر فيها أمثال هؤلاء، لأن وجودهم من نوع المصادفات التي لا تبني عليها آمال ولا أحلام.

والنتيجة أن المستبد فرد عاجز، لا حول له ولا قوة إلا بالمتجدين، والأمة، أي أمة كانت، ليس لها من يحك جلدتها غير ظفرها. ولا يقودها إلا العقلاء بالتنوير والإهداء والثبات، حتى إذا ما اكفهرت سماء عقول بنيها قبض الله لها من جمعهم الكبير أفرادا كبار النفوس، قادة أبرارا، يشرون لها السعادة بشقائهم والحياة بموتهم، حيث يكون الله جعل في ذلك لذتهم، ولئلا تلك الشهادة الشريفة خلقتهم، كما خلق رجال عهد الاستبداد فاسقا فجارا، مهالكهم الشهوات والمخالب. فبسبحان الذي يختار من يشاء لما يشاء وهو الخلاق العظيم.

الاستعداد والمال

الاستعداد لو كان رجلاً وأراد أن يحتسب ويتسب لقال : «أنا الشر، وأبى الظلم، وأبى الإساءة، وأبى الغدر، وأبى المسكنة، وعمى الضر، وخالى الذل، وابنى الفقر، وبنى البطالة، وعشيرتى الجهالة، ووطنى الخراب، أما دينى وشرفى وحياتى فالمال، المال، المال، المال».

المال يصح فى وصفه أن يقال : القوة مال، والوقت مال، والعقل مال، والعلم مال، والدين مال، والثبات مال، والجاه مال، والجمال مال، والترتيب مال، والاقتصاد مال، والشهرة مال، والحاصل : كل ما يتفجع به فى الحياة هو مال.

وكل ذلك يباع ويشترى، أى يستبدل بعضه ببعض، وموازين المعادلة هى : الحاجة والعزة والوقت والتعب، وحافظة اليد والفضة والذهب والذمة، وسوقه : المجتمعات. وشيخ السوق : السلطان. - فبانظر فى سوق يتحكم فيه مستبد، يأمر زيدا بالبيع، وينهى عمراً عن الشراء، ويغضب بكراً عماله، ويحارب خالداً من مال الناس.

المال تعنونه الأحكام، فمنه الحلال ومنه الحرام، وهما بيان، ولنعم الحاكم فيهما الرجدان. فالخلال الطيب ما كان عوض أعيان، أو أجر أعمال، أو بدل وقت أو مقابل ضمان. والمال الخبيث الحرام هو ثمن الشرف. ثم المقصوب. ثم المسروق، ثم المأخوذ إجماعاً، ثم المحتال فيه.

إن النظام الطبيعى فى كل الحيوانات، حتى فى السمك واليهوم، إلا أنثى العنكبوت، أن النوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضاً، والإنسان يأكل الإنسان.

ومن غريزة سائر الحيوان أن ياتسبس الرزق من الله. أى من مورد الطبيعة، وهذا الإنسان الظالم نفسه حريص على اختطافه من يد أخيه، بل من فيه، بل كم أكل الإنسان الإنسان!

الاستبداد والإنسان:

عاش الإنسان دهرًا طويلاً يتلذذ بلحم الإنسان ويتلمظ بدمائه، إلى أن تمكن الحكماء في الصين ثم الهند من إبطال أكل اللحم كلياً سداً للباب كما هو دأبهم إلى الآن. ثم جاءت الشرائع الدينية الأولى في غربي آسيا بتخصيص ما يؤكل من الإنسان بأسير الحرب، ثم بالقربان بنذر للمعبود وبذبح على يد الكهان. ثم أبطل أكل لحم القربان وجعل قطعة للبيران. وهكذا تدرج الإنسان إلى نسيان لذة لحم إخوانه، وما كان لينسى عبادة إهراق الدماء لولا أن إبراهيم، شيخ الأنبياء، استبدل بقربان البشر الحيوان، وأتبعه موسى عليهما السلام، وبه جاء الإسلام. وهكذا يطل هذا العدو بهذا الشكل إلا في أواسط إفريقيا عند «السامان».

الاستبداد المشبوم لم يرض أن يقتل الإنسان الإنسان ذبحاً نياًكل خمه أكلاً، كما كان الهنوج الأولون يفعلون، بل تفنن في الظلم: فالمستبدون بأسروا جماعتهم ويذبحونهم قصداً بمبضع الظلم، ويمتصون دماء حياتهم بغصب أموالهم، ويقصرون أعمارهم باستخدامهم سخرة في أعمالهم، أو بغصب ثمرات أتعابهم. وهكذا لا فترق بين الأولين والآخرين في نهب الأعمار وإزهاق الأرواح إلا في الشكل.



إن بحث الاستبداد والمال بحث قوى العلاقة بالظلم القائم في فطرة الإنسان، ولهذا رأيت أن لا بأس في الاستطراد لخدمات تتعلق نتائجها بالاستبداد الاجتماعي المحمى بقلاع الاستبداد السياسي. فمن ذلك:

أن البشر، المقدر مجموعهم بألف وخمسمائة مليون، نصفهم كل على النصف الآخر، ويشكل أكثرية هذا النصف الكل نساء المدن. ومن النساء النساء هن النوع

الذي عرف مقامه في الطبيعة بأنه هو الحافظ لبقاء الجنس ، وأنه يكفي للآلئ منه ملقح واحد ، وأن باقي الذكور حفظهم أن يساقوا للمخاطر والمشاق ، أو هم يستحقون ما يستحقه ذكر النحل . وبهذا النظر اقتسمت النساء مع الذكور أعمال الحياة قسمة ضيزى ، وتحكمين بسن قانون عام به جعلن نصيبهن هين الأشغال بدعوى الضعف ، وجعلن نوعهن مطلوباً عزيزاً بإيهام العفة ، وجعلن الشجاعة والكرم سيئتين فيهن محمدين في الرجال ، وجعلن نوعهن يهين ولا يهان ، ويظلم أو يُظلم فيعان . وعلى هذا القانون يرين البنات والبنين ، ويتلاعبن بعقول الرجال كما يشآن ، حتى إنهن جعلن الذكور يتوهمون أنهن أجفَل منهن صورة ، والحاصل أنه قد أصاب من سماهن بالتصف المضر ، ومن المشاهد أن ضرر النساء بالرجال يترقى مع الحضارة والمدنية على نسبة الترقى المضاعف . فالبلدية تشارك الرجل مناصفة في الأعمال والثمرات فتعيش كما يعيش ، والحضرية تسلب الرجل لأجل معيشتها وزيتها اثنين من ثلاث وتعيته في أعمال البيت ، والمدنية تسلب ثلاثة من أربعة وتود ألا تخرج من الفراش ، وهكذا تترقى بنات العواصم في أسر الرجال . وما أصدق بالمدنية الحاضرة في أوربا أن تسمى المدنية النسائية لأن الرجال فيها صاروا أنعاماً للنساء .

ثم إن الرجال تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة أيضاً ، فإن أهل السياسة والأديان ومن ياتحق بهم ، وعددهم لا يبلغ الخمسة في المائة ، يتمتعون بنصف ما يتجمد من دم البشر أو زيادة ، ينفقون ذلك في الرفه والإسراف . مثال ذلك أنهم يزينون الشوارع بملايين من المصابيح لمروهم فيها أحياناً متراوحيين بين الملامى والمواخير ولا يفكرون في ملايين من الفقراء يعيشون في بيوتهم في ظلام .

ثم أهل الصنائع النفيسة والكمالية والتجار الشبهون والمحتكرون وأمثال هذه الطبقة ، ويقدرّون كذلك بخمسة في المائة ، يعيش أحدهم بمثل ما يعيش به العشرات أو المئات أو الألوف من الصناع والزراع . وجرثومة هذه القسمة المتفاوتة المتباعدة الظالمة هي الاستبداد لا غيره . وهناك أصناف من الناس لا يعملون إلا قليلاً ، إنما يعيشون بالحيلة كالسماسرة والمشعوذين باسم الأدب أو الدين ، وهؤلاء يقدرّون بخمسة عشر في المائة أو يزيدون على أولئك .

نعم لا يقتضى أن يتساوى العالم الذى صرف زهوة حياته فى تحصيل العلم النافع أو الصنعة المفيدة بذلك الجاهل النائم فى ظل الحائط، ولا ذلك التاجر المجتهد المخاطر بالكسول الخامل، ولكن العدالة تقتضى غير ذلك التفاوت، بل تقتضى الإنسانية أن يأخذ الراقى بيد السافل فيقربه من منزله ويقاربه فى معيشته ويعينه على الاستقلال فى حياته.

لا! لا! لا يطلب التقدير معاونة الغنى، إنما يرجوه ألا يظلمه، ولا يلتبس منه الرحمة، إنما يلتبس العدالة، لا يؤمل منه الإنصاف، إنما يسأله ألا يميته فى ميدان عزاحة الحياة.

بسط المولى جلّت حكمته سلطان الإنسان على الأكران، فطغى وبغى ونسى ربه وعبد المال والجمال وجعلهما منيته ومبتغاه، كأنه خلق خادما لبطته وعطشه فقط. لا شأن له غير الغذاء والتحاك. وبالنظر إلى أن المال هو الوسيلة الموصلة للجمال ناد أكبر هم للإنسان ينحصر فى جمع المال، ولهذا يكنى عنه بمعبود الأمم وبسر الوجود، وروى "كريبسكو" المؤرخ الروسى أن "كاترينا"^(١) شكت كسل رعيتها، فأرشدتها شيطانها إلى حمل النساء على الخلاعة، ففعلت، وأحدثت كسرة المراتقى، فهب الشبان للعمل وكسب المال لصرفه على ربات الجمال، وفى ظرف خمس سنين تضاعف دخل خزينتها فاتسع لها مجال الإسراف. وهكذا المستبدون لا نههم الأخلاق إنما يهتمهم المال.



المال عند الاقتصاديين: ما ينتفع به الإنسان، وعند الحقوقيين: ما يجرى فيه المنع والميل، وعند السياسيين: ما تستعاض به القوة، وعند الأخلاقيين: ما تحفظ به الحياة الشريفة. المال يستمد من القىض الذى أودعه الله تعالى فى الطبيعة وفوائدها، ولا يملك، أى لا يتخصص بإنسان، إلا بعمل فيه أو فى مقابله.

والمقصود من المال هو أحد اثنين لا ثالث لهما، وهما: تحصيل ثروة، أو دفع ألم،

(١) كاترين الثانية، أو العظيمة (١٧٢٩-١٧٩٦م) حكمت الإمبراطورية الروسية قبضة عليهما من سنة

١٧٩٢ حتى سنة ١٧٩٦م.

وفيهما تنحصر كل مقاصد الإنسان، وعليهما مبني أحكام الشرائع كلها، والحاكم المعتدل في طيب المال وخبيثه هو الوجدان الذي خلقه الله صبغة للنفس، وغيره في القرآن **﴿فَأَنهَيمَهَا فَجُورُهَا وَتَقْوَاهَا﴾** (الشمس : ٨) ، فالوجدان خيز بين المال الحلال والمال الحرام .

ثم إن أعمال البشر في تحصيل المال ترجع إلى ثلاثة أصول :

١ - استحضار المواد الأصلية .

٢ - تهيئته المواد للانتفاع بها .

٣ - توزيعها على الناس .

وهي الأصول التي تسمى بالزراعة والصناعة والتجارة ، وكل وسيلة خارجة عن هذه الأصول وفروعها الأولية فهي وسائل ظالمة لا خير فيها .

التمول ، أي ادخار المال ، طبيعة في بعض أنواع الحيوانات الدنيئة كالنمل والنحل ، ولا أثر له في الحيوانات المرتقية غير الإنسان . الإنسان تطبع على التمول لدواعي الحاجة المحققة أو الموهومة ، ولا تحقق للحاجة إلا عند سكان الأراضي الضيقة الثمرات على أهلها ، أو الأراضي المعرضة للفيضان في بعض السنين ، ويلتحق بالحاجة المحققة حاجة العاجزين جسما عن الارتزاق في البلاد المتباعدة بجور الطبيعة أو جور الاستبداد ، وربما يلتحق بها أيضا الصرف على المضطرين وعلى المصارف العمومية في البلاد التي ينقصها الانتظام العام .

والمراد بالانتظام العام معيشة الاشتراك العمومي التي أسسها الإنجيل بتخصيصه عشر الأموال للمساكين ، ولكن لم يكد يخرج ذلك من القوة إلى الفعل . ثم أحدث الإسلام سنة الاشتراك على أتم نظام ، ولكن لم تدم أيضا أكثر من قرن واحد كان فيه المسلمون لا يجدون من يدفعون لهم الصدقات والكفارات . وذلك أن الإسلامية ، كما سبق بيانه ، أسست حكومة أرستقراطية المبني ، ديموقراطية الإدارة ، فوضعت للبشر قانونا مؤسسا على قاعدة : أن المال هو قيمة الأعمال ، ولا يجتمع في يد الأغنياء إلا بأنواع من الغلبة والخذاع .

فالعدالة المطلقة تقتضي أن يؤخذ قسم من مال الأغنياء ويرد على الفقراء . بحيث

يحصل التعديل ولا يموت النشاط للعمل. وهذه القاعدة يتسنى ما هو من نوعها أغلب العالم المتمدن الإفريقي، وتسعى وراءها الآن جمعيات منهم منتظمة مكونة من ملايين كثيرة، وهذه الجمعيات تقصد حصول التساوي أو التقارب في الحقوق والحالة المعاشية بين البشر، وتسعى ضد الاستبداد المالي، فتطلب أن تكون الأراضي والأموال الثابتة وآلات المعامل الصناعية الكبيرة مشتركة الشيوع بين عامة الأمة، وأن الأعمال والثمرات تكون موزعة بوجوه مستقاربة بين الجميع، وأن الحكومة تضع قوانين للشؤون كافة حتى الجزئيات وتقوم بتنفيذها.

وهذه الأصول، منع بعض التعديل، قررت الإسلاميه دينا، وذلك أنها قررت:

(أولا) - أنواع العشور والزكاة وتقسيمها على أنواع المصارف العامة وأنواع المحتاجين، حتى المدينين، ولا يخفى على المدقق أن جزءا من أربعين من رؤوس الأموال يقارب نصف الأرباح المعتدلة باعتبار أنها خمسة بالمائة ستويا، وبهذا النظر يكون الأغنياء مضارين للصناعة فنافسة^(١). وهكذا يلحق فقراء الأمة بأغنياتها، ويمنع تراكم الثروات المفرطة المولدة للاستبداد، المضرة بأخلاق الأفراد.

(ثانيا) - قررت أحكام محكمة تمنع محدور التواكل في الارتزاق، وتلزم كل فرد من الأمة، متى اشتد ساعده أو ملك قوت يومه أو النصاب على الأكثر، أن يسعى لرزقه بنفسه أو يموت جوعا، وقد لا يتأتى أن يموت الفرد جوعا إذا لم تكن حكومته مستعدة لتسرب على يده وسعيه ونشاطه لمدافع استبدادها. وقد قبل: يبدأ الانقياد للعسل عند نهاية الخوف من الحكومة ونهاية الائتكال على الغير.

(ثالثا) - قررت الإسلاميه ترك الأراضي الزراعية ملكا لعامة الأمة، يستنتجها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط، وليس عليهم غير العشر أو الخراج الذي لا يجوز أن يتجاوز الخمس لبيت المال.

(رابعا) - جاءت الإسلاميه بقواعد شرعية كلية تصلح للإحاطة بأحكام الشؤون كافة حتى الجزئية الشخصية، وأناطت تنفيذها بالحكومة، كما تطلبه الآن أغلب

(١) أي بينهم وبين الجمهور خلافا في النشاط الاقتصادي مثل شركة المضاربة المعروفة في الفقه الإسلامي.

جميعيات الاشتراكيين. على أن هذا النظام الذي جاء به الإسلام. صعب الإجراء جدا، لأنه منوط بسيطرة الكل ورضاء الأكثر وهيبات... ولأن هناك منافع أدبية يعسر توزيعها ولا تتسامح فيها النفوس، ولأن القانون الكثير الشروع يتعذر حفظه بسيطا، ويكون معرضا للتأويل حسب الأغراض، وللاختلاف في تطبيقه حسب الأهواء. كما وقع فعلا في المسلمين، فلم يمكنهم إجراء شريعتهم ببساطة وأمانة إلا عهدا قليلا. ثم تشعبت معهم الأمور بطبيعة اتساع الملك واختلاف طبائع الأمم. وفقد الرجال الذين يمكنهم أن يسوقوا مئات ملايين من أجناس الناس: الأبيض والأصفر، والحضري والبدوي، بعضا واحدة قرونا عديدة.

ولا غرو إذا كانت المعيشة الاشتراكية من أبدع ما يتصوره العقل. ولكن للأسف لم يبلغ البشر بعد من الترقى ما يكفي لتوسيعهم نظام التعاون والتضامن في المعيشة العائلية إلى إدارة الأمم الكبيرة. وكم خربت الأمم ذلك فلم تنجح فيها إلا الأمم الصغيرة مدة قليلة، والسبب كما تقدم هو مجرد صعوبة التحليل والترتيب بين الصالح والمصلح الكثيرة المختلفة. والمتأمل في عدم انتظام حالة العائلات الكبيرة، يقنع حالا بأن التكافل والتضامن غير فيسورين في الأمم الكبيرة. ولهذا يكون خير حل مقدور للمسألة الاجتماعية هو ما يأتي:

- ١- يكون الإنسان حرا مستقلا في شؤونته كأنه خلق وحده.
- ٢- تكون العائلة مستقلة كأنها أمة وحدها.
- ٣- تكون القرية أو المدينة مستقلة كأنها قارة واحدة لا علاقة لها بغيرها.
- ٤- تكون القبائل في الشعب أو الأقاليم في المملكة كأنها أفلاك كل منها مستقل في ذاته، لا يربطها بغيرها نظامها الاجتماعي وهو الجنس أو الدين أو الملك غير محض التجاذب المانع من الوقوع في نظام آخر لا يلائم طبائع حياتها.



ثم إن التمويل لأجل الحاجات السالفة الذكر، ويقدرها فقط، معمود بثلاثة شروط، وإلا كان حرص التمويل من أقبح الخصال:

الشرط الأول: أن يكون إحراز المال بوجه مشروع حلال. أي بإحرازه من بدل

الطبيعة، أو بالمعارضة، أو في مقابل عمل أو في مقابل ضمان، على ما تقوم بتفصيله الشرائع المدنية.

والشرط الثاني: ألا يكون في التمويل تضيق على حاجيات الغير، كاحتكار الضروريات، أو مزاحمة الصانع والعمال الضعفاء، أو التغلب على المباحات مثل امتلاك الأراضي التي جعلها خالقها محررا لمخلوقاته كافة، وهي أمهم ترضعهم لبن جهازاتها وتغذيهم بشعراتها وتأويهم في حضن أجزائها، فجاء المستبدون الظالمون الأولون ووضعوا أصولا لحمايتها من أبنائها وحالوا بينهما. فهذه إيرلندا مثلا قد حماها ألف مستبد مائي من الإنكليز، ليتمتعوا بثلاثي أو ثلاثة أرباع ثمرات أعقاب عشرة ملايين من البشر الذين خلقوا من تربة إيرلندا. وهذه مصر وغيرها تقرب من ذلك حالا وستفوقها مالا. وكم من البشر في أوروبا المتمددة، وخصوصا في لنبرة وباريس، لا يجد أحدهم أرضا ينام عليها ممددا، بل ينامون في الطبقة السفلى من البيوت حيث لا ينام البقر، وهم قاعدون صفوا يعتمدون يصدورهم على حبال من مسد منصوبة أفقية يتلوتون عليها تحته ويسرة.

وحكومة الصين المختلفة النظام في نظر المتمدنين لا تحيز قوايينها أن يمتلك الشخص الواحد أكثر من مقدار معين من الأرض لا يتجاوز العشرين كيلو مترا مربعا، أي نحو خمسة أفدنة مصرية أو ثلاثة عشر دوغما عثمانيا، وروسيا المستبدة القاسية في عرف أكثر الأوروبيين وضعت أخيرا لولاياتها البولونية والغربية قانونا أشبه بقانون الصين، وزادت عليه أنها منعت سماع دعوى دين غير مسجل على فلاح، ولا تأذن لفلاح أن يستدين أكثر من نحو خمسمائة فرنك، وحكومات الشرق إذا لم تستدرك الأمر فتضع قانونا من قبيل قانون روسيا، تصبح الأراضي الزراعية بعد خمسين عاما أو قرن على الأكثر كإيرلندا الإنكليزية المسكينة، التي وجدت لها في مدى ثلاثة قرون شخصا واحدا حاول أن يرحمها فلم يفلح، وأعنى به غلادستون^(١)، على أن الشرق ربما لا يجد في ثلاثين قرنا من يلتمس له الرحمة.

والشرط الثالث لجواز التمويل، هو: ألا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير، لأن إفراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة في الإنسان، وهذا معنى الآية: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ

(١) ولیم إیارات (١٨٠٩-١٨٩٨م) من دعاة السياسة البریطانیین فی القرن التاسع عشر.

لِيَطْفَى (٦) أَنْ رَأَى اسْتَفْغَى (٧) (العلق : ٦ ، ٧) ، والشرائع السماوية كلها وكذلك الحكمة الأخلاقية والعمرائية حرمت الربا صيانة لأخلاق المرابين من الفساد ، لأن الربا هو كسب بدون مقابل مادي ففيه معنى الغصب ، وبدون عمل ، لأن المرابي يكسب وهو نائم ، ففيه الألفه على البطالة ، ومن دون تعرض لحساب طبعية ، كالتجارة والزراعة والأملك ، ففيه النماء المطلق المؤدى لانحصار الثروات . ومن القواعد الاقتصادية المتفق عليها أن ليس من كسب لا عار ولا احتكار فيه أرباح من الربا مهما كان معتدلا ، وأن بالربا تروى الثروات فيختل التساوى أو التقارب بين الناس .

وقد نظر المليون وبعض الاقتصاديين من أنصار الاستبداد في أمر الربا فقالوا : إن المعتدل منه نافع بل لا بد منه . أولا : لأجل قيام المعاملات الكبيرة . وثانيا : لأجل أن التقود الموجودة لا تكفى للتداول فكيف إذا أمسك المكتزون قسما منها أيضا . وثالثا : لأجل أن كثيرين من الممولين لا يعرفون طرائق الاسترباح أو لا يقدرون عليها ، كما أن كثيرا من العارفين بها لا يجدون رؤوس أموال ولا شركاء عتاء . فهذا النظر صحيح من وجه إثماء ثروات بعض الأفراد . أما السياسيون اشتراكيو المبادئ والأخلاقيون ، فينظرون إلى أن ضرر الثروات الفردية في جمهور الأمم أكبر من نفعها ، لأنها تمكن الاستبداد الداخلي فتجعل الناس صنفين : عبيدا وأسيادا ، وتقوى الاستبداد الخارجي فتسهل للأمم التي تغنى بغناء أفرادها التعدى على حرية واستقلال الأمم الضعيفة . وهذه مقاصد فاسدة في نظر الحكمة والعدالة ولذلك يقتضى تحريم الربا تحريما مغلظا .



حرص التمول ، وهو الطمع التبيح ، يخف كثيرا عند أهالي الحكومات العادلة المنتظمة ، ما لم يكن فساد الأخلاق متغلبا على الأهالي كأكثر الأمم المتقدمة في عهدنا ، لأن فساد الأخلاق يزيد في الميل إلى التمول في نسبة الحاجة الإسرافية ، ولكن تحصيل الثروة الطائلة في عهد الحكومة العادلة عسير جدا ، وقد لا يأتى إلا من طريق الماربة مع الأمم المنحطة ، أو التجارة الكبيرة التي هيها نوع احتكار ، أو الاستعمار في البلاد البعيدة مع المخاطر ، على أن هذه الضعوبة تكون مقرونة بلذة عظيمة من نوع لذة من يأكل ما طبخ أو يسكن ما بنى .

وحرص التمول القبيح يشتد كثيرا في رؤوس الناس في عهد الحكومات المستبدة حيث يسهل فيها تحصيل الثروة بالسرقة من بيت المال، وبالتعدي على الحقوق العامة، وبغصب ما في أيدي الضعفاء. ورأس مال ذلك هو أن يترك الإنسان الدين والوجدان والحياء جانبا وينحط في أخلاقه إلى ملاءمة المستبد الأعظم أو أحد أعوانه وعماله. ويكفيه وسيلة أن يتصل بباب أحدهم ويتقرب من اعتابه، ويظهر له أنه في الأخلاق من أمثاله وعلى شاكلته، ويبرهن له ذلك بأشياء من التملق وشهادة الزور، وخدمة الشهوات، والتجسس، والدلالة على السلب ونحو ذلك. ثم قد يطلع هذا المنتسب على بعض الخفايا والأسرار التي يخاف رجاان الاستبداد من ظهورها خوفا حقيقيا أو وهميا. فيكسب المنتسب رسيوخ القدم ويصير هو بابا لغيره، وهكذا يحصل على الثروة الطائلة إذا ساعدته الظروف على الثبات طويلا. وهذا أعظم أبواب الثروة في الشرق والغرب، ويليه الاتجار بالدين ثم الملاهى ثم الربا الفاحش، وهى ينس المكاسب وينس ما تؤثر في إفساد أخلاق الأمم.

وقد ذكر المدققون أن ثروة بعض الأفراد في الحكومات العادلة أضر كثيرا منها في الحكومات المستبدة، لأن الأغنياء في الأولى يصرفون قوتهم المالية في إفساد أخلاق الناس وإخلال المساواة وإيجاد الاستبداد. أما الأغنياء في الحكومات المستبدة فيصرفون ثروتهم في الأبهة والتعظيم إرهابا للناس وتعزيفا للسلطة الحقيقية المنصبة عليهم بالتعالى الباطل، ويسرفون في الأموال في الفسق والنجور.

بناء عليه، ثروة هؤلاء يتعجلها الزوال حيث يغضبها الأقوي منهم من الأضعف، وقد سلبها المستبد الأعظم في لحظة وبكلمة، وتزول أيضا، والحمد لله، قبل أن يتعلم أصحابها أو ورثتهم كيف تحفظ الثروات وكيف تنمو، وكيف يستعملون بها الناس استعبادا أصوليا مستحكما، كما هو الحال في أوروبا المتمدنة المهتدة بشروط الفوضويين بسبب اليأس من مقاومة الاستبداد المالى فيها.

ومن طابع الاستبداد أنه لا يظهر فيه أثر فقر الأمة ظهورا بينا إلا قجاة قريب قضاء الاستبداد تحبه. وأسباب ذلك أن الناس يقتصدون في التسل وتكثر وفيانهم ويكثر تغريهم، ويبيعون أملاكهم من الأجانب فتتثلث الثروة وتكثر النقود بين الأيدي. ويشت من ثروة ونقود تشبه نشوة المذبح.

ولنرجع إلى بحث طبيعة الاستبداد في مطلق المال فأقول : إن الاستبداد يجعل المال في أيدي الناس عرضة لسلب المستبد وأعوانه وعماله غصبا ، أو بخجة باطلة ، وعرضة أيضا لسلب المعتدين من اللصوص والمحتالين الراتعين في ظل أمان الإدارة الاستبدادية . وحيث المال لا يحصل إلا بالمشقة فلا تختار النفوس الإقدام على المتاعب مع عدم الأمن على الانتفاع بالثمرة .

حفظ المال في عهد الإدارة المستبدة أصعب من كسبه ، لأن ظهور أثره على صاحبه مجلبة لأنواع البلاء عليه ، ولذلك يضطر الناس زمن الاستبداد لإخفاء نعمة الله والتظاهر بالفقر والفاقة ، ولهذا ورد في أمثال الأسراء : أن حفظ درهم من الذهب يحتاج إلى قنطار من العقل ، وأن العاقل من يخفي ذهبه وذهايه ومذهبه ، وأن أسعد الناس الصعلوك الذي لا يعرف الحكام ولا يعرفونه .

ومن طبائع الاستبداد أن الأغنياء أعداؤه فكرا وأوتاده عملا ، فهم ربانط المستبد بذلهم فيثنون ويستدرهم فيحتنون ، ولهذا يرسخ الذل في الأمم التي يكثر أغنيائها ، أما الفقراء فيخافهم المستبد خوفاً التعجبة من الذئاب ، ويتحجب إليهم ببعض الأعمال التي ظاهرها الرأفة ، يقصد بذلك أن يغضب أيضا قلوبهم التي لا يملكون غيرها . والفقراء كذلك يخافونه خوفاً دناءة وبذالة ، خوفاً اليغات من العقاب ، فهم لا يجسرون على الافتكار فضلا عن الإنكار ، كأنهم يتوهمون أن داخل رؤوسهم جواسيس عليهم . وقد يبلغ فساد الأخلاق في الفقراء أن يسرههم فعلا رضاء المستبد عنهم بأي وجه كان رضاءه .

وقد خالف الأخلاقيون المتأخرون أسلافهم في قولهم : ليس الفقر بعيب ، فقالوا : الفقر أبو المعائب ، لأنه مفتقر للغير والغباء استغناء عن الناس . ثم قالوا : الفقر يذهب بعزة النفس ويقضي إلى خلع الحياء . وقالوا : إن تحسين اللباس والأمتعة والتنعيم في المعيشة تأثيرا مهما على نفوس البشر ، خلافا لما يقول : ليس المرء بطيلسانه . وحديث «الحشوشنوا فإن النعم لا تدوم»^(١) هو لأنه يحمل على التعود جسما على المشاق في الخروب والأسفار وعند الحاجة . وقالوا : إن رغد العيش ونعيمته لمن أعظم الحاجات ، به تعلو الهمة ولأجله تقتحم العظائم .

(١) هذه الرواية بالمعنى وليس بالنظر .

يقال في مدح المال: إن أكبر ما يحل المشكلات الزمان والمال. القوة كانت للعصبية ثم صارت للعلم ثم صارت للمال. العلم والمال يظيلان عمر الإنسان حيث يجعلان شيخوخته كشبابه. لا يصفان الشرف إلا بالندم ولا يتأتى العز إلا بالمال. قد مضى مجد الرجال وجاء مجد المال. وورد في الأثر: «إن اليد العليا خير من اليد السفلى»^(١). و«إن الغنى الشاكر أفضل من الفقير الصابر»^(٢). ولم يكن قديما أهمية للثروة العمومية؛ أما الآن وقد صارت المحاربات محض مغالبات علم ومال، فأصبح للثروة العمومية أهمية عظمى لأجل حفظ الاستقلال. على أن الأمم المأسورة لا تنصيب لها من الثروة العمومية، بل منزلتها في المجتمع الإنساني كأنعام تتناقلها الأيدي. ولا تعارض هذه القاعدة ثروة اليهود لأنها ثروة غير مزاحمين عليها، لأنها فيما يقوله أعداؤهم فيها: ثروة رأسمالها الناموس ومصرفها الملاهي والمقامرة والربا والغش والمضاربات. ولا يخلو هذا القول من التحامل عليهم حسدا ممن يقدمون إقدامهم ولا ينالون منالهم.

هذا وللمال الكثير آفات على الحياة الشريفة ترتعد منها فرائض أهل الفضيلة والكمال، الذين يفضلون الكفاف من الرزق مع حفظ الحرية والشرف على امتلاك دواعي الترف والسرف، وينظرون إلى المال الزائد عن الحاجة الكمالية على أنه بلاء في بلاء، أي أنه بلاء من حيث التعب في تحصيله. وبلاء من حيث القلق على حفظه. وبلاء من حيث الافتكار باغاثه، وأما المكثفي فيعيش مهملتنا مستريحا أما^(٣) بعض الأمن على دينه وشرقه وأخلاقه.

قرر الأخلاقيون أن الإنسان لا يكون حرا تماما ما لم تكن له صفة مستقل فيها، أي غير مرؤوس لأحد، لأن حريته الشخصية تكون تابعة لارتباطه بالرؤساء، وعليه تكون أقبح الوظائف هي وظائف الحكومة. وقالوا إن للصنعة تأثيرا في الأخلاق والأميال، وهي من أصدق ما يستدل به على أحوال الأفراد والأقوام. فالموظفون في الحكومة مثلا يفقدون الشفقة والعواطف العالية تبعا لصنعتهم التي من مقتضاها عدم الشعور بتبعة أعمالهم. وقال الحكماء إن العاجز يجمع المال بالتقتير والكريم

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) صحيح المعنى. ولقطة من المأثورات.

(٣) في الطبعة الأولى وفي الأصل المنبج: أميدا.

يجمعه بالكسب ، وقالوا : إن أقل كسب يرضى به العاقل ما يكفي معاشه باقتصاد . وقالوا : خير المال ما يكفي صاحبه ذل القلة وطغيان الكثرة . وهذا معنى الحديث «فاز المخفون»^(١) وحديث «أسأله الله الكفاف من الرزق»^(٢) . ويقال : الغنى غنى القلب ، والغنى من قلت حاجته ، والغنى من استغنى عن الناس . وقال بعض الحكماء : كل إنسان فقير بالطبع ، ينقصه مثل ما يملك . فمن يملك عشرة يرى نفسه محتاجا لعشرة أخرى . ومن يملك ألفا يرى نفسه محتاجا لألف أخرى . وهذا معنى الحديث : «لو كان لابن آدم واد من ذهب أحب أن يكون له واديان»^(٣) .

ولا يقصد الأخلاقيون من التزهيد في المال التخليط عن كسبه . إنما يقصدون ألا يجاور كسبه الطرائق الطبيعية الشريرة . أما السياسيون فلا يهمهم إلا أن تستغنى الرعية بأي وسيلة كانت ، والغربيون منهم يعينون الأمة على الكسب ليشاركوها ، والشرقيون لا يفتكرون في غير سلب الموجود ، وهذه من جملة الفروق بين الاستبداديين الغربي والشرقي ، التي منها أن الاستبداد الغربي يكون أحكم وأرسخ وأشد وطأة ولكن مع اللين ، والشرقي يكون متقلبا سريعا الزوال ولكنه يكون من عجا . ومنها أن الاستبداد الغربي إذا زال تبدل بحكومة عادلة تقيم ما ساعدت الظروف أن تقيم ، أما الشرقي فيزول ويخلفه استبداد شر منه ، لأن من دأب الشرقيين ألا يفتكروا في مستقبل قريب ، كان أكبر همهم منحصر في ما بعد الموت فقط ، أو أنهم متلون بقصر البصر .

وخلاصة القول ، إن الاستبداد داء أشد وطأة من الوباء ، أكثر هم لا من الحريق ، أعظم تخريبا من السيل ، أذل للتنفوس من السؤال . داء إذا نزل يقوم سدعت أرواحهم هائف السماء ينادي : القضاء ، القضاء ! والأرض تاجي ربهما بكشف البلاء . الاستبداد عهد أشقى الناس فيه العقلاء والأغنياء ، وأسعدهم تحياء الجاهل ، والفقراء . بل أسعدهم أولئك الذين يتعجلهم الموت فيحسد لهم الأحياء !

* * *

(١) هذه الرواية صحيحة وليس باللفظ

(٢) هذه الرواية صحيحة . وليس باللفظ

(٣) رواه البخاري وصححه

الاستبداد والأخلاق

الاستبداد يتصرف في أكثر الأميال الطبيعية والأخلاق الحسنة، فيضعفها أو يفسدها أو يحورها، فيجعل الإنسان يكفر بنعم مولاه، لأنه لم يملكها حق الملك ليحييها عليها حق الحمد، ويجعله حاقدا على قومه لأنهم عيون ليلاء الاستبداد عليه، وفاقدا حب وطنه، لأنه غير آمن على الاستقرار فيه ويود لو انتقل منه، وضعيف الحب لعائلته، لأنه ليس مطمئنا على دوام علاقته معها، ومحتال الثقة في صداقة أحيائه، لأنه يعلم منهم أنهم مثله لا يملكون التكافؤ، وقد يضطرون لإصرار صدقهم بل وقتله وهم باقون أسير الاستبداد لا يملك شيئا ليحرص على حفظه، لأنه لا يملك مالا غير معرض للسلب، ولا شرفا غير معرض للإهانة، ولا يملك الجاهل منه أمالا مستقبلة لاتباعها ويشقى كما يشقى العاقل في سبيلها.

وهذه الحال تجعل الأسير لا يذوق في الكون لذة نعيم غير بعض الملذات البهيمية. بناء عليه يكون شديد الحرص على حياته الحميمية وإن كانت تعيسة، وكيفية لا يحرص عليها، وهو لا يعرف غيرها. أين هو من الحياة الأدبية؟ أين هو من الحياة الاجتماعية؟ أما الأحرار فتكون منزلة حياتهم الحيوانية عندهم بعد مراتب عديدة، ولا يعرف ذلك إلا من كان منهم، أو من كشف البذرة عن بصيرته.

ومثال الأسراء في حرصهم على حياتهم الشيوخ. فإنهم عندما تمسى حياتهم كلها أسقاما وآلاما ويقربون من أبواب القبور، يحرصون على حياتهم أكثر من الشباب في مقتبل العمر، في مقتبل الملاذ، في مقتبل الأمال.

الاستبداد يسلب الراحة الفكرية فيضئ الأجسام فوق ضئها بالشقاء، فتمرض

العقول ويختل الشعور على درجات متفاوتة في الناس - والعوام ، الذين هم قليلو
المادة في الأصل ، قد يصل مرضهم العقلي إلى درجة قريبة من عدم التمييز بين الخير
والشر في كل ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية . ويصل تسفل إدراكهم إلى
أن مجرد آثار الأبهة والعظمة التي يرونها على المستبد وأعوانه تبهر أبصارهم ،
ومجرد سماع الفاظ التفخيم في وصفه وحكايات قوته وصولته يزيغ أفكارهم ،
فيرون ويفكرون أن الدواء في الداء ، فيتصاعون بين يدي الاستبداد انصياع الغنم
بين أيدي الذئب حيث هي تجرى على قدميها جاهدة إلى مقر حتفها .

ولهذا كان الاستبداد يستولى على تلك العقول الضعيفة للعامة ، فضلا عن
الأجسام ، فيفسدها كما يريد ، ويتغلب على تلك الأذهان الضئيلة فيشوش فيها
الحقائق ، بل البيدييات ، كما يهوى ، فيكون مثلهم في انقيادهم الأعمى للاستبداد ،
ومقاومتهم للرشد والإرشاد ، مثل تلك الهوام التي تتراعى على النار ، وكم هي
تغالب من يريد حجزها على الهلاك . ولا غرابة في تأثير ضعف الأجسام على
الضعف في العقول . فإن في المرضى وخفة عقولهم ، وذوى العاهات ونقص
إدراكهم . شاهدنا بينا كافيًا يقاس عليه نقص عقول الأسراء البؤساء بالنسبة إلى
الأحرار السعداء ، كما يظهر الحال أيضًا بأقل فرق بين الفئتين من الفرق البين في قوة
الأجسام وغزارة الدم واستحكام الصحة وجمال الهيئات .

ربما يستريب المطالع اللبيب ، الذي لم يتعب فكرة في درس طبيعة الاستبداد ،
من أن الاستبداد المشنوم كيف يقوم على قلب الحقائق . مع أنه إذا دقق النظر يتجلى
له أن الاستبداد يقلب الحقائق في الأذهان . ويرى أنه كم مكن بعض القياصرة
والملوك الأولين من التلاعب بالأديان تأييدًا لاستبدادهم فاتبعهم الناس . ويرى أن
الناس وضعوا الحكومات لأجل خدمتهم . والاستبداد قلب الموضوع ، فجعل الرعية
خادمة للرعاة قبلوا وقنعوا . ويرى أن الاستبداد استخدام قوة الشعب ، وهي هي
قوة الحكومة ، على مصالحهم لا لمصالحهم فيرتضوا ويدعوا . ويرى أنه قد قبل
الناس من الاستبداد ما ساقهم إليه من اعتقاد أن طالب الحق فاجر ، وتارك حقه
مطيع ، والمشتكى المتظلم مفسد ، والنبية المذيق ملحد . والحامل المسكين صالح
أمين . وقد اتبع الناس الاستبداد في تسميته النصيح فضولًا ، والغبرة عداوة ،

والشهامة عتوا، والحنمية خماقة، والرحمة مرضا، كما جازوه على اعتبار أن النفاق سياسة، والتجمل كياسة، والدناءة لطف، والنبالة ذمالة.

ولا غرابة في تحكم الاستبداد على الحقائق في أفكار السطاء، إنما الغريب إغفاله كثيرا من العقلاء، ومنهم جمهور المؤرخين الذين يسمون الفاتحين الغالبين بالرجال العظام، وينظرون إليهم بنظر الإجلال والاحترام لمجرد أنهم كانوا أكثروا في قتل الإنسان، وأسرفوا في تخريب العمران. ومن هذا القبيل في الغرابة إعلاء المؤرخين قدر من جازوا المستبدين، وحازوا القبول والوجاهة عند الظالمين. وكذلك افتخار الأخلاف بأسلافهم المجرمين الذين كانوا من هؤلاء الأعوان الأشرار.

وقد يظن بعض الناس أن للاستبداد حسنات مفقودة في الإدارة الخرة، فيقولون مثلا: الاستبداد يلين الطباع ويلطفها، والحق أن ذلك يحصل فيه عن فقد الشهامة لا عن فقد الشراسة. ويقولون: الاستبداد يعلم الصغير الجاهل حسن الطاعة والانقياد للكبير الخبير، والحق أن هذا فيه عن خوف وجبانة لا عن اختيار وإذعان. ويقولون: هو يربي النفوس على الاعتدال والوقوف عند الحدود، والحق أن ليس هناك غير انكماش ونقيصر. ويقولون: الاستبداد يقلل الفسق والفجور، والحق أنه عن فقر وعجز لا عن عفة أو دين. ويقولون هو يقلل التعدييات والجرائم، والحق أنه يمنع ظهورها ويخفيها فيقتل تعديدها لا أعدادها.



الأخلاق أثمار بذرها الورثة، وترتبتها التربية، وسقيها العلم، والقائمون عليها هم رجال الحكومة، بناء عليه تفعل السياسة في أخلاق البشر ما تفعله العناية في إغناء الشجر.

نعم: الأقوام كالآجام، إن تركت مهملة تراحمت أشجارها وأفلذها^(١)، وسقم أكثرها، وتغلب قوتها على ضعيفها فأهلكه، وهذا مثل القبائل المتوحشة. وإن صادفت يستأنس بقمها بقاءها وزهرها فديرها حسبما تطلبه طباعها، قويت وأنبعت وحسنت ثمارها، وهذا مثل الحكومة العادلة. وإذا نابت يستأنس حذر بأن

(١) أفلاذ الأرض: قوتها.

يسمى خطايا لا يعنيه إلا عاجل الاكتساب، أفسدها وخربتها، وهذا مثل الحكومة المستبدة. ومتى كان الخطاب غريباً لم يخلق من تراب تلك الديار وليس له فيها فحار ولا يلحقه منها عار. إنما همم المحصور على الفائدة العاجلة ولو باقتلاع الأصول، فهناك الطامة وهناك البوار. فبناء على هذا المثال يكون فعل الاستبداد في أخلاق الأمم فعل ذلك الخطاب الذي لا يرجي منه غير الإفساد.

لا تكون الأخلاق أخلاقاً ما لم تكن ملكة مطردة على قانون فطري تقتضيه أولاً؛ وظيفة الإنسان نحو نفسه، وثانياً: وظيفته نحو عائلته. وثالثاً: وظيفته نحو قومه، ورابعاً: وظيفته نحو الإنسانية. وهذا القانون هو ما يسمى عند الناس بالناموس.

ومن أين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب ناموس وهو كالخيران المملوك العنان، يقاد حيث يراد، ويعيش كالثور يشبه حيث بهب الريح. لا نظام ولا إرادة؟ وما هي الإرادة؟ هي أم الأخلاق، هي ما قبل فيها تعظيماً لسانها: لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الإرادة! هي تلك الصفة التي تفصل الحيوان عن النبات في تعريفه بأنه متحرك بالإرادة. فالأسير إذن دون الحيوان لأنه يتحرك بإرادة غيره لا بإرادة نفسه. ولهذا قال الفقهاء: لا نية للرقيق في كثير من أحواله، إنما هو تابع لنية مولاه. وقد يعتذر الأسير على فساد أخلاقه، لأن فاقده الخيار غير مؤخذ عقلاً وشرعاً.

أسير الاستبداد لا نظام في حياته، فلا نظام في أخلاقه. قد يصبح غنياً فيضنحى شجاعاً كريماً، وقد يمسى فقيراً قبيحاً جباناً خسيئاً. وهكذا كل شؤونه تشبه الفوضى لا ترتب فيها، فهو يتبعها بلا وجهة. أليس الأسير قد ينبغي فيزجر أو لا يزجر، ويبغى عليه فينصر أو لا ينصر، ويحسن فيكافأ أو يرهق، ويبغى كثيراً فيعفى وقليلاً فيشتد. ويجوع يوماً فيفصوى، ويخصب يوماً فيتختم، يريد أشياء فيمنع، ويبغى شيئاً فيرغم؟! وهكذا يعيش كما تقتضيه الصدفة أن يعيش، ومن كانت هذه حاله كيف يكون له خلاق؟ وإن وجد ابتداء يتعذر استمراره عليه، ولهذا لا تجوز الحكمة الحكم على الأسراء بخير أو شر.

أقل ما يؤثره الاستبداد في أخلاق الناس. أنه يرغم حتى الأخيار منهم على ألفة الرياء والنفاق، وليس السيئان. وأنه يعين الأشرار على إجراؤهم في نفوسهم أميين

من كل تبعة ولو أدبية، فلا اعتراض ولا انتقاد ولا اقتضاح، لأن أكثر أعمال الأشرار تبقى مستورة، يلقي عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة على ذي شر وعقبي ذكر الفاجر بما فيه. ولهذا شاعت بين الأسراء قواعد كثيرة باطلة كتولهم: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب، وقولهم: البلاء موكول بالمنطق. وقد تغالى وعاظهم في سد أفواههم حتى جعلوا لهم أمثال هذه الأقوال من الحكم النبوية، وكم هجوا لهم الهجو والغيبة بلا قيد، فهم يقرؤون: ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ﴾ ويغفلون بقية الآية وهي: ﴿ إلا من ظلم ﴾ (النساء: ١٤٨).

أقوى ضابط للأخلاق: النهي عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ، أى يحرض الأفراد على حراسة نظام الاجتماع، وهذه الوظيفة غير مقدور عليها في عهد الاستبداد لغير ذوى المنعة من الغيورين، وقليل ما هم، وقليل ما يفعلون، وقليل ما يفيد لهم، لأنه لا يمكنهم توجيه غير المستضعفين الذين لا يملكون ضرا ولا نفعاً، بل ولا يملكون من أنفسهم شيئاً، ولأنه يتحصر موضوع نهيتهم فيما لا تخفى قباحتها على أحد من الرذائل الشخصية الشخصية فقط. ومع ذلك فالجسور لا يرى بدا من الاستثناء المخل للقواعد العامة كقوله: السرقة قبيحة إلا إذا كانت استرداداً منها، والكذب حرام إلا للسلطون، والموظفون في عهد الاستبداد ليعوظ والإرشاد يكونون مطلقاً، ولا أقول غالباً، من المتأقين الذين نالوا الوظيفة بالتسلق، وما أبعد هؤلاء عن التأثير، لأن النصيح الذى لا إخلاص فيه هو بذر عقيم لا ينبت، وإن نبت كان رياء كأصله، ثم إن النصيح لا يفيد شيئاً إذا لم يصادف أدناً تتطلب سماعته، لأن النصيحة وإن كانت عن إخلاص فهي لا تتجاوز حكم البذر الحى: إن ألقي فى أرض صالحة نبت، وإن ألقي فى أرض قاحلة مات.

أما النهي عن المنكرات فى الإدارة الحرة، فيمكن لكل غير على نظام قومه أن يقوم به بأمان وإخلاص، وأن يوجه سهام قوارصه إلى الضعفاء والأقرباء سوءاً، فلا يخص بها الفقير المجروح الفؤاد، بل تستهدف أيضاً ذوى الشوكة والعناد. وأن يخوض فى كل واد حتى فى مواضع تخفيف الظلم ومراعاة الحكام، وهذا هو

النصح الإنكارى الذى يعدى ويجدى ، والذى أطلق عليه النبى عليه السلام اسم
«الدين» تعظيما لشأنه فقال : «الدين النصيحة»^(١) .

ولما كان ضبط أخلاق الطبقات العليا من الناس أهم الأمور ، أطلقت الأمم الحرية
حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنية القذف فقط . وراى أن تحمل مضرة
القوضى فى ذلك خير من التحديد ، لأنه لا مانع للحكام أن يجعلوا الشعرة من
التقييد سلسلة من حديد ، يخنفون بها عبدوتهم الطبيعية ، أى الحرية . وقد حمى
القرآن قاعدة الإطلاق بقوله الكريم : « ولا يضار كاتب ولا شهيد » (البقرة : ٢٨٢) .

* * *

الخصال تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : الخصال الحسنة الطبيعية ، كالصدق والأمانة والهمة والمدافعة
والرحمة ، والقبوحة الطبيعية كالرياء والاعتداء والجبن والقسوة ، وهذا القسم
تضافرت عليه كل الطبائع والشرائع .

والنوع الثانى : الخصال الكمالية التى جاءت بها الشرائع الإلهامية كتحصين الإيثار
والعفو وتقيح الزنا والطمع ، وهذا القسم يوجد فيه ما لا تدرك كل العقول حكمته
أو حكمة تعميمه ، فيمثلته المتنبسون للدين احتراماً أو خوفاً .

والنوع الثالث : الخصال الاعتيادية وهى ما يكتسبه الإنسان بالوراثة أو بالتربية أو
بالآفة ، فيستحسن أو يستقبح على حسب أفعاله ما لم يضطر إلى التحول عنها .

ثم إن التدقيق يفيد أن الأقسام الثلاثة تشترك ويؤثر بعضها فى بعض ،
فيصير مجموعها تحت تأثير الآفة المديدة ، بحيث كل خصلة منها ترسخ أو تتزلزل
حسبما يصادفها من استمرار الآفة أو انقطاعها . فالقاتل مثلاً لا يستنكر شيعته فى
المرء الثانية كما استقبحها من نفسه فى الأولى ، وهكذا يخف الجرم فى وهمه ، حتى
يصل إلى درجة التلذذ بالقتل كأنه حق طبيعى له ، كما هى حالة الجبارين وغالب

السياسيين ، إهراقا بالسيف أو إزهاقا بالقلم ، ولا فرق بين القتل بقطع الاوداج وبين الإماتة بإبراث الشقاء غير التشريع والإبطاء .

أسير الاستبداد العريق فيه يرث شر الخصال ، ويترى على أثرها ، ولا بد أن يصحبها بعضها مدى العمر . بناء عليه ، ما أبعد عن خصال الكمال ، ويكفيه مفسدة لكل الخصال الحسنة الطبيعية والشرعية والاعتيادية تلبسه بالرياء اضطرابا حتى يألفه ويصير ملكة فيه ، فيفقد بسببه ثقة نفسه بنفسه لأنه لا يجد خلقا مستقرا فيه ، فلا يمكنه مثلا أن يجزم بأمانته ، أو يضمن ثباته على أمر من الأمور فيعيش سعي الظن في حق ذاته مترددا في أعماله ، لو أمّا نفسه على إهماله شؤونته ، شاعرا بقصور همته ونقص مروءته ، ويبقى طول عمره جاهلا مورد هذا الخلل ، فيتهم الخالق ، والخالق جل شأنه لم ينقصه شيئا ، ويتهم تارة دينه وتارة تربيته وتارة زمانه وتارة قومه ، والحقيقة بعيدة عن كل ذلك ، وما الحقيقة غير أنه خلق حرا فأسر .

أجمع الأخلاقيون على أن المنليس بشائبة من أصول القبائح الخلقية لا يمكنه أن يقطع بسلامة غيره منها . وهذا معنى : «إذا ساءت فعال المرء ساءت ظنونه» . فالمرء مثلاً ليس من شأنه أن يظن البراءة في غيره من شائبة الرياء ، إلا إذا بعد تشابه النسأة بينهما بعدا كبيرا ، كأن يكون بينهما مغايرة في الجنس أو الدين أو تفاوت مهم في المنزلة كصعلوك وأمير كبير . ومثال ذلك الشرقي الخائن ، يأمن الإفريقي في معاملته ويثق بوزنه وحسابه ولا يأمن ويثق بابن جلدته . وكذلك الإفريقي الخائن قد يأمن الشرقي ولا يأمن مطلقا ابن جنسه . وهذا الحكم صادق على عكس القضية أيضا ، أي أن الأمين يظن الناس أمنا ، خصوصا أشباهه في النسأة ، وهذا معنى «الكريم يخدع» . وكم يُذهل الأمين في نفسه عن اتباع حكمة الحزم في إساءة الظن في مواقفه اللازمة .

إذا علمنا أن من طبيعة الاستبداد ألقة الناس بعض الأخلاق الرديئة ، وأن منها ما يضعف الثقة بالنفس ، علمنا سبب قلة أهل العيول وأهل العزائم في الأسراء ، وعلمنا أيضا حكمة فقد الأسراء ثقتهم بعضهم ببعض ، فيستج من ذلك أن الأسراء محرومون طبعاً من ثمرة الاشتراك في أعمال الحياة ، يعيشون منساكين بانسين متخاذلين متعاسين متغاشلين ، والعامل الحكيم لا يلومهم بل يشفق عليهم

ويلتمس لهم مخرجاً. ويتبع أثر أحكم الحكماء القائل: «رب ارحم قومي فإنهم لا يعلمون». «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

وهنا أستوقف المطالع واستنقت إلى التأمل في ما هي ثمرة الاشتراك التي يحرمها الأشرار، فأذكره بأن الاشتراك هو أعظم سر في الكائنات، به قيام كل شيء ما عدا الله وحده. به قيام الأجرام السماوية، به قيام كل حياة، به قيام المواليده، به قيام الأجناس والأنواع. به قيام الأمم والقبائل، به قيام العائلات، به تعاون الأعضاء. نعم، الاشتراك فيه سر تضاعف القوة بنسبة ناموس التربيع، فيه سر الاستمرار على الأعمال التي لا تنفي بها أعمار الأفراد. نعم، الاشتراك هو السر كل السر في نجاح الأمم المتقدمة، به أكملوا ناموس حياتهم القومية. به ضبطوا نظام حكوماتهم. به قاضوا بعضائهم الأمور، به نالوا كل ما يغبطهم عليه أسراء الاستبداد الذين منهم العارفون بقدر الاشتراك ويشوقون إليه، ولكن كلا منهم يظن لغين شركائه باتكائه عليهم عملاً، واستبداده عليهم رأياً، حتى صار من أمثالهم قولهم: «ما من متفكرين إلا وأحدعنا مغلوب للآخر».

ورب قائل يقول: إن سر الاشتراك ليس بالأمر الخفي، وقد طالما كتب فيه الكتاب حتى ملته الأسماع. ومع ذلك لم يندفع للقيام به في الشرق غير اليابانيين والبربر، فما السبب؟ فأجيبه بأن الكتاب كتبوا أكثر وأحسنوا فيما فصلوا وصوروا، ولكن قاتل الله الاستبداد وشومه، جعل الكتاب يحصرون أقوالهم في الدعوة إلى الاشتراك وما يبعثه من التعاون والاتحاد والتحاب والائتاق، ومنعهم من التعرض لذكر أسباب التفرق والانحلال كلها، أو اضطرهم إلى الاقتصار على بيان الأسباب الأخيرة فقط، فمن قائل مثلاً: الشرق مريض وسببه الجهل، ومن قائل: الجهل بلاء وسببه قلة المدارس، ومن قائل: قلة المدارس عار وسببه عدم التعاون على إنشائها من قبل الأفراد أو من قبل ذوي الشأن.

وهذا أعنى ما يخطه قلم الكاتب الشرقي، كأنه وصل إلى السبب المانع الطبيعي أو الاختياري. والحقيقة أن هناك سلسلة أسباب أخرى حلقتها الأولى: الاستبداد

وكاتب آخر يقول: الشرق مريض وسببه فقد التمسك بالدين، ثم يفت. مع أنه لو تتبع الأسباب لبلغ إلى الحكم بأن التهاون في الدين أولاً وأخراً ناشئ من

الاستبداد. والآخر يقول : إن السبب فساد الأخلاق ، وغيره يرى أنه فقد التربية ،
وسواء ظن أنه الكسل ، والحقيقة أن المرجع الأول في الكل هو الاستبداد. الذي يمنع
حتى أولئك الباحثين عن التصريح باسمه المهيّب .



قد اتفق الحكماء الذين أكرمهم الله تعالى بوظيفة الأخذ بيد الأمم في بحثهم عن
المهلكات والمنجيات ، على أن فساد الأخلاق يخرج الأمم عن أن تكون قابلة
للخطاب ، وأن معاناة إصلاح الأخلاق من أصعب الأمور وأحوجها إلى الحكمة
البالغة والعزم القوي . وذكروا أن فساد الأخلاق يحرم المستبد وأعوانه وعماله ، ثم
يدخل بالعدوى إلى كل البيوت ، لا سيما بيوت الطبقات العليا التي تتمثل بها
المنفلى . وهكذا يفسد الفساد وعمى الأمة يبكيتها المحب ويشمت بها العدو ،
وتبيت ودافوها عياء يتعاصى على الدواء .

وقد سلك الأنبياء ، عليهم السلام ، في إنقاذ الأمم من فساد الأخلاق مسلك
الابتداء ، أولاً بفك العقول من تعظيم غير الله والإذعان لسواه ، وذلك بتقوية حسن
الإيمان المتطور عليه وجدان كل إنسان ، ثم جهدوا في توير العقول بمبادئ الحكمة ،
وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته ، أي حرته في أفكاره ، واختياره في أعماله .
وبذلك هدموا حصون الاستبداد وسدوا منبع الفساد .

ثم بعد إطلاق زمام العقول ، صاروا ينظرون إلى الإنسان بأنه مكلف بقانون
الإنسانية ومطالب بحسن الأخلاق ، فيعلمونه ذلك بأساليب التعليم المقتع وبث
التربية التهذيبية .

والحكماء السياسيون الأقدمون ، اتبعوا الأنبياء عليهم السلام في سلوك هذا
الطريق وهذا الترتيب ، أئى بالابتداء من نقطة دينية فطرية تؤدي إلى تحرير الضمائر ،
ثم باتباع طريق التربية والتهذيب بدون فتور ولا انقطاع .

أما المتأخرون من قادة العقول في الغرب ، فمنهم فئة سلكوا طريقة الخروج بأهمهم
من حظيرة الدين وأدابه النفسية ، إلى فضاء الإطلاق وتربية الطبيعة ، زاعمين أن
الفطرة في الإنسان أهدي به سبيلاً ، وحاجته إلى النظام تغنيه عن إغاثة الأديان ، التي

هي كالمخدرات سموم تعطل الحس بالهموم، ثم تذهب بالحياة فيكون ضررها أكبر من نفعها.

وقد ساعدتهم على سلوك هذا المسلك، أنهم وجدوا أمهم قد فشلت في تعليمهم العلم. ذلك العلم الذي كان منحصرا في خدمة الدين عند المصريين والآشوريين، ومحتكرا في أبناء الأشراف عند الغرناطين والرومان، ومخصصا في أعداد من الشبان المنتخبين عند الهنديين واليونان، حتى جاء العرب بعد الإسلام وأطلقوا حرية العلم، وأباحوا تناوله لكل متعلم، فانتقل إلى أوروبا حرا على رغم رجال الدين، فتطورت به عقول الأمم على درجات. وفي نسبتها ترقى الأمم في النعيم، وانتشرت وتخالطت، وصار المتأخر منها يغط المتقدم ويتبعص من حالته، ويتطلب اللحاق ويبحث عن وسائله. فتشأ من ذلك حركة قوية في الأفكار، حركة معروفة الخير والغيرة على نواله، حركة معرفة الشر والأفة من الصبر عليه، حركة السير إلى الأمام على رغم كل معارض. اغتنم زعماء الحرية في الغرب قوة هذه الحركة وأضافوا إليها قوات أدبية شتى، كاستبدانهم ثقالة وقار الدين برهوة عروس الحرية، حتى إنهم لم يبالوا بتمثيل الحرية بحسنة خليعة تختاب النفوس، وكاستبدانهم رابطة الاشتراك في الطاعة للمستبدين برابطة الاشتراك في الشؤون العمومية، ذلك الاشتراك الذي يتولد منه حب الوطن. وهكذا جعلوا قوة حركة الأفكار تيارا سلطوا على رؤوس الرؤوس من أهل السياسة والدين، ثم إن هؤلاء الزعماء استباحوا القساوة أيضا، فأخذوا من مهجورات دينهم قاعدة "الغاية تبرر الوسيلة"، كمجاز السرقة إذا كانت الغاية منها صرف المال في سبيل الخير، وقاعدة "تقبل الذمة ببيع الفعل القبيح" كشهادة الزور على ذمة الكاهن التي يتحمل عنه خطيئتها، ودفعوا الناس بهما إلى ارتكاب الجرائم الفظيعة التي يفسد منها الإنسانية، التي لا يستنبحها الحكيم الشرقي لما بين أبناء الغرب وأبناء الشرق من التباين في العرائز والأخلاق.

الغربي: مادي الحياة، قوي النفس، شديد المعاملة، حريص على الاستئثار، حريص على الانتقام، كأنه لم يبق عنده شيء من المبادئ العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق، فالجرماني مثلا: جاف الطبع، يرى أن العضو الضعيف من البشر يستحق الموت. ويرى كل فضيلة في القوة، وكل نقرة في المال،

فهو يحب الغلم، ولكن لأجل المال، ويحب المجد ولكن لأجل المال. وهذا الثلاثي مطبوع على العجب والفضيل، يرى العقل في الإطلاق، والحياة في خلع الحياء، والشرف في الشرف، والكياسة في الكسب، والعز في الغلبة، والمزلة في المائدة والفراش.

أما أهل الشرق فهم أديبون، ويغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحب، والإصغاء للوجدان، والميل للرحمة ولو في غير موقعها، واللفظ مع الخصم، ويرون العز في الفتوة والمروءة، والغنى في القناعة والفضيلة، والراحة في الأسى والسكينة، والمزلة في الكرم والتعجب وهم يغضبون ولكن للدين فقط، ويتأرون ولكن على العرض فقط.

وليس من شأن الشرقي أن يسير مع الغربي في طريق واحدة، فلا تطاوعه طباعه على استباحة ما يستحسنه الغربي، وإن تكلف تقليده في أمر فلا يحسن التقليد، وإن أحسنه فلا يثبت، وإن ثبت فلا يعرف استثماره، حتى لو سقطت الشجرة في كفه تمنى لو قفرت إلى فمه!.. فالشرقي مثلاً يهتم في شأن ظالمه إلى أن يزول عنه ظلمه، ثم لا يفكر فيمن يخلفه ولا يراقبه، فيقع في الظلم ثانية، فيعيد الكرة ويعود الظلم إلى ما لا نهاية. وكأولئك الباطنية في الإسلام: فتكروا بمئات أمراء على غير طائل. كأنهم لم يسمعوا بأحكام النبوة: «لا يلدغ المرء من جحر فرتين»، ولا بالحكمة القرآنية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: ٧). أما الغربي إذا أخذ على يد ظالمه فلا يفلته حتى يشلها، بل حتى يقطعها ويكوى مقطعيها.

وهكذا بين الشرقيين والغربيين فروق كثيرة. قد يفضل في الأفراد الشرقي على الغربي، وفي الاجتماعيات يفضل الغربي على الشرقي مطلقاً. مثال ذلك: الغربيون يستحلون أميرهم على الصداقة في خدمته لهم والتزام القانون. والسلطان الشرقي يستحلف الرعية على الانقياد والطاعة! الغربيون يمنون على ملوكهم بما يرتزقون من فضلاتهم، والأمراء الشرقيون يتكرمون على من شاءوا بإجراء أموالهم عليهم صدقات! الغربي يعتبر نفسه مالكا لجزء مشاع من وطنه، والشرقي يعتبر نفسه وأولاده وما في يديه ملكاً لأسيره! الغربي له على أميره حقوق وليس عليه حقوق. والشرقي عليه لأسيره حقوق وليس له حقوق! الغربيون يضعون قانوناً لأسيرهم يسرى عليه، والشرقيون يسرون على قانون مشيئة أمرائهم! الغربيون قضاؤهم

وقد رهنهم من الله، والشرقيون قضاؤهم وقدرهم ما يصدر من بين شفتي المستعبدين! الشرقي سريع التصديق، والغربي لا ينفي ولا يثبت حتى يرى ويلمس الشرقي أكثر ما يغار على الفروج كأن شرفه كله مستودع فيها، والغربي أكثر ما يغار على حرية واستقلاله! الشرقي حريص على الدين والرياء فيه، والغربي حريص على القوة والعز والمزيد فيهما! والخلاصة أن الشرقي ابن الماضي والخيال، والغربي ابن المستقبل والجد!

الحكماء المتأخرون الغربيون ساعدتهم ظروف الزمان والمكان، وخصوصية الأحوال. لاختصار الطريق فسلكوه، واستباحوا ما استباحوا، حتى إنهم استباحوا في التمهيد السياسي تشجيع أعزائهم المستبد على تشديد وطأة الظلم والاعتساف بقصد تعميم الحق عليه، وبمثل هذه التدابير القاسية نالوا المراد أو بعضه من تحرير الأفكار وتهذيب الأخلاق وجعل الإنسان إنساناً.

وقد سبق هؤلاء الغلاة فئة اتبعت أثر النبيين، ولم تحفل بطول الطريق وتعبه، فبحجت ورمخت، وأعطى تلك الفئة أولئك الحكماء الذين لم يأتوا بدين جديد، ولا تمسكوا بمعادة كل دين كمؤسسي جمهورية الفرنسيين، بل رتقوا فتوق الدهر في دينهم بما نطقوا به وأهلوا وسهلوا وقربوا، حتى جددوه، وجعلوه صالحاً لتجديد خلق الأمة.

وما أحوج الشرقيين أجمعين من بوذيين ومسلمين ومسيحيين وإسرائيليين وغيرهم، إلى حكماء لا يبالغون بغوغاء العلماء المراتين الأغبياء، والرؤساء القساة الجاهلاء، فيجددون النظر في الدين، نظر من لا يحفل بغير الحق الصريح، نظر من لا يضع النتائج بتشويش المقدمات، نظر من يقصد إظهار الحقيقة لا إظهار الفصاحة. نظر من يريد وجه ربه لا استمالة الناس إليه، وبذلك يعيدون النواقص المعطلة في الدين، ويهذبونه من الزوائد الباطلة مما يطرأ عادة على كل دين بتقادم عهده، فيحتاج إلى مجددين يرجعون به إلى أصله المبين البريء من حيث تمليك الإرادة ورفع البلاهة من كل ما يشين. المخفف شقاء الاستبداد والاستعباد، المبصر بطرائق التعليم والتعلم الصحيحين، قيام التربية الحسنة واستقرار الأخلاق المنتظمة مما به يصير الإنسان إنساناً، وبه لا بالكفر يعيش الناس إخواناً.

والشرقيون ما داموا على حاضر حالهم بعيدين عن الجسد والمعزم، سرتاحين للهوى والهزل تسكيناً لآلام أسارة النفس وإخلاذاً إلى الخمول والتسفل، طلباً لراحة الفكر المضغوط عليه من كل جانب، يتألمون من تكثيرهم بالحقائق، ومطالبتهم بالوظائف، ينتظرون زوال العناد بالتواكل، أو مجرد التمني والدعاء. أو يتريصون بمصادقة مثل التي نالتها بعض الأمم، فليتوقعوا إذن أن يفقدوا الدين كلياً فيصنوا، وما مساوهم ببعيد. دهرين لا يدرون أي الحياتين أشقى. فلينظروا ما حاق بالآشوريين والفينيقيين وغيرهم من الأمم المنقرضة المندمجة في غيرها حدماء وخوفاً.

والأمر الغريب، أن كل الأمم المنحطة من جميع الأديان تحصر بلبية انحطاطها السياسي في نهائيتها بأمور دينها، ولا ترجو تحسين حالتها الاجتماعية إلا بالتمسك بعروة الدين تمسكاً مكيناً، ويريدون بالدين العبادة. ولنعلم الاعتقاد لو كان يفيد شيئاً، لكنه لا يفيد أبداً، لأنه قول لا يمكن أن يكون وراءه فعل، وذلك أن الدين بذر جيد لا شبهة فيه، فإذا صادف مغرساً طيباً نبت وثمر، وإن صادف أرضاً قاحلة مات وفات، أو أرضاً مغرقاً هلك ولم يثمر. وما هي أرض الدين؟ أرض الدين هي تلك الأمة التي أعشى الاستبداد بصرها وبصيرتها وأفسد أخلاقها ودينها، حتى صارت لا تعرف للدين معنى غير العبادة والنسك للدين زيادتهما عن حدهما المشروع أضرب على الأمة من نقصهما كما هو مشاهد في المنتسكين.

نعم، الدين يفيد الترقى الاجتماعي إذا صادف أخلاقاً فطرية لم تفسد، فينهض بها كما نهضت الإسلامية بالعرب، تلك النهضة التي تطليها منذ ألف عام عبثاً.

وقد علمنا هذا الدهر الطويل، للأسف، أن أكثر الناس لا يحفلون بالدين إلا إذا وافق أغراضهم، أو لهوا ورياء، وعلمنا أن الناس عبيد منافعهم وعبيد الزمان، وأن العقل لا يفيد العزم عندهم، إنما العزم عندهم يتولد من الضرورة أو يحصل بالسائق المجبر. ولا يستحي الناس من أن يلزموا أنفسهم باليمين أو النذر. بناء عليه، ما أجبر بالأمم المنحطة أن تلتصق دواءها من طريق إحياء العلم وإحياء المهمة مع الاستعانة بالدين والاستفادة منه بمثل: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ (العنكبوت: ٤٥)، لا أن يتكلموا على أن الصلاة تمنع الناس عنهما بطبيعتها.



الاستعداد والتربية

خلق الله في الإنسان استعداداً للصالح واستعداداً للفساد، فأبواه يصلحانه وأبواه يفسدانه. أي أن التربية تربو باستعداده جسماً ونفساً وعقلاً، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وقد سبق أن الاستعداد المشنوم يؤثر في الأجسام فيورثها الأسقام، ويسطو على النفوس فيفسد الأخلاق، ويضغط على العقول فيمتنع ثناءها بالعلم. بناء عليه تكون التربية والاستعداد عاملين متعاكسين في النتائج؛ فكل ما تبنيه التربية، مع ضعفها، يهدمه الاستعداد بفوته، وهل يتم بناء وراعه هادم؟ الإنسان لا حد لغايته رفياً وانحطاطاً. وهذا الإنسان الذي حارت العقول فيه، الذي تحمل أمانة تربية النفس، وقد أثبتها العوالم كافة، فأتم خالقه استعداداً ثم أوكله لحيته^(١)، فهو إن يشأ الكمال يبلغ فيه إلى ما فوق مرتبة الملائكة، وإن شاء تلبس بالردائل حتى يكون أحط من الشياطين، على أن الإنسان أقرب للشر منه للخير، وكفى أن الله ما ذكر الإنسان في القرآن، إلا وقرن اسمه بوصف قبيح «كظلم» و«غور» و«كفار» و«جبار» و«جهول» و«أثيم». ما ذكر الله تعالى الإنسان في القرآن إلا وهجاه فقال: ﴿ قُلِ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ (عبس: ١٧)، ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ (الاحق: ٦٦)، ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ (العصر: ٢)، ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَإِغْفَى ﴾ (العلق: ٦)، ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴾ (الإنشراء: ١١)، ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَجَلٍ ﴾ (الأنبياء: ٣٧). ما وجد من مخلوقات الله من نازع الله في عظمته، والمستبدون من الإنسان

(١) المراد: جعله مركباً لا خريته واختياره. ويجوز أن تكون: لحيته.

(٢) الآية المذكورة بالأصل خطأ هكذا «إِنَّ الْإِنسَانَ كَانَ لَرَبِّهِ كَفُورًا».

ينازعون فيها. والمتناهون في الرذالة قد يقبحون عبثاً، لغير حاجة في النفس، حتى وقد يتعمدون الإساءة لأنفسهم.

الإنسان في نشأته كالغصن الرطب فهو مستقيم لدن بطبعه، ولكنها أهواء التربية تميل به إلى يمين الخير أو شمال الشر، فإذا شب ينس ويبقى على آميانه ما دام حياً. بل تبقى روحه إلى أهد الأبدن في نعيم السرور، بإيفائه حق وظيفته الحية، أو في جحيم الندم على تغريظه. وربما كان لا غرابة في تشبيه الإنسان بعد الموت بالمرء الفرح الفخور إذا نام ولذت له الأحلام. أو بالمجرم الجاني إذا نام فغسيت قوارص الوجدان بهواجن كلها ملام وإيلام.

التربية ملكة تحصل بالتعليم والتمرين والتأدب والاقتباس، فأهم أصولها وجود المربين، وأهم فروعها وجود الدين. وجعلت الدين فرعاً لا أصلاً، لأن الدين علم لا يفيد العمل إذا لم يكن مقروناً بالتمرين، وهذا هو سبب اختلاف الأخلاق من علماء الدين عند الإسلام عن أمثالهم من البراهمة والنصارى، وهو سبب إقبال المسلمين في القرن الخامس، وفي ما بعده، على قبول أصول الطوائف التي كانت لها محضاً لما كانت تعاليماً وتمريناً، أي تربية للمريدين، ثم خالطها الفسار، ثم صارت فساراً محضاً، ثم صار أكثرها ليهواً أو كفراً.

ملكّة التربية بعد حصولها إن كانت شراً تضافرت مع النفس ووليها الشيطان الخناس^(١) فرسخت، وإن كانت خيراً تبقى مقابلة كالسفينة في بحر الأهواء. لا يرسوبها إلا فرعها الدني في السر والعلانية، أو التوازع السياسي عند يقين الحقائق.

والاستبداد دريح صرصر فيه إغمصار يجعل الإنسان كل ساعة في شأن، وهو مفسد للدين في أهم تسميه أي الأخلاق، وأما العبادات منه لا يمسه لأنها نلائمه في الأكثر. ولهذا تبقى الأديان في الأمم المأسورة عبادة عن عبادات مجردة صارت عادات فلا تفيد في تطهير النفوس شيئاً. ولا تنهي عن فحشاء ولا منكر. فقد الإخلاص فيها تبعاً لفقدته في النفوس التي ألقت أن تتلجأ وتتلاوى بين يدي سطوة الاستبداد في زوايا الكذب والرياء والخداع والتفاني، ولهذا لا يستغرب في الأسير

(١) الخناس لقب من القوم الذين

الآليف تلك الحال، أي الرياء، أن يستعمله أيضا مع ربه، ومع أبيه وأمه ومع قومه وجنسه، حتى ومع نفسه.

التربية تربية الجسم وحده إلى ستين، وهي وظيفة الأم أو الخاضعة، ثم تضاف إليها تربية النفس إلى السابعة، وهي وظيفة الأبوين والعائلة معا. ثم تضاف إليها تربية العقل، إلى البلوغ، وهي وظيفة المعلمين والمدارس، ثم تأتي تربية المقدرة بالأقرين والخلطاء إلى الزواج، وهي وظيفة المصادقة، ثم تأتي تربية المقارنة، وهي وظيفة الزوجين إلى الموت أو الفراق.

ولا بد أن تصحب التربية من بعد البلوغ، تربية الظروف المحيطة، وتربية الهيئة الاجتماعية وتربية القانون أو السير السياسي، وتربية الإنسان نفسه.



الحكومات المنتظمة، هي (التي)^(١) تتولى ملاحظة تسهيل تربية الأمة من حين تكون في ظهور الآباء، وذلك بأن تبسّ قوانين النكاح، ثم تعتنى بوجود القابات والمقربين والأطباء، ثم تفتح بيوت الأيتام الملقاه، ثم تعد المكتاتب والمدارس للتعليم من الابتدائي الجبري إلى أعلى المراتب، ثم تسهل الاجتماعات وتمهّد المسارح، وتعمي المنتديات وتجمع المكتبات والآثار، وتقيم النصب المذكرات، وتضع القوانين المحافظة على الآداب والحقوق، وتسهر على حفظ العادات القومية، وإثاء الإحساسات المالية^(٢) وتقوى الآمال، وتيسر الأعمال، وتؤمن العاجزين فعلا عن الكسب من الموت جوعا، وتدفع سلمي الأجيال إلى الكسب ولو في أقصى الأرض، وتحبب الفضل وتقدر الفضيلة. وهكذا تلاحظ كل شئون المرء ولكن من بعيد، كي لا تخل بحريته واستقلاله الشخصي، فلا تقرب منه إلا إذا جنى جرما لتعاقبه، أو مات لتربيته.

وهكذا الأمة تحرض على أن يعيش ابنها راضيا بنصيبه من حياته لا يفكر قط كيف تكون بعده حالة صبية ضعاف يتركهم وراءه. بل يموت مطمئنا راضيا فرضيا آخر دعائه: فلتحي الأمة، فلتحي الهمة.

(١) غير موجودة في الأصل النسخ، وأجدها من نسخة الأولى.

(٢) في الأصل النسخ: المالية، وبالنسبة عن الطبعة الأولى.

أما المعيشة الغرضية في الإدارات المستبدة فهي غنية عن التورية، لأنها محض غناء يشبه غناء الأشجار الطبيعية في الغابات والأحراش، يسطو عليها الحرق والغرق. وتحطمها العواصف والأيدي القواصف، ويتصرف في فساثلها وفروعها الناس الأحمى، فتعيش ماشاءت رحمة الخطايين أن تعيش، واختيار المصادفة تخرج أو تستقيم، تضر أو تعظم.

يعيش الإنسان في ظل العدالة والحرية نشيطا على العمل بياض نهاره، وعلى الفكر سواد ليله، إن طعم تلذذ، وإن تلهى تروح وتريض، لأنه هكذا رأى أبويه وأقرباءه، وهكذا يرى قومه الذين يعيش بينهم. يراهم رجالا ونساء، أغنياء وفقراء، ملوكا وصنعايك، كلهم دائبين على الأعمال، يفتخر منهم كاسب الدينار بكده وجده على مالك المليار إرثا عن أبيه وجده. نعم يعيش العامل ناعم البال، يسره النجاح، ولا تقبضه الحيرة، إنما ينتقل من عمل إلى غيره، وعن فكر إلى آخر، فيكون متلذذا باماله إن لم يساعده السعد في أعماله، وكيفما كان يبلغ العار عند نفسه والناس بمجرد إيقائه وظيفة الحياة، أي العمل. ويكون فرحا فخورا بنجح أو لم ينجح، لأنه يرى من عار العجز والبطالة.

أما أسير الاستبداد، فيعيش خاملا خامدا، ضائع القصد، خائرا لا يدري كيف يميت ساعاته وأوقاته، ويدرج أيامه وأعوامه، كأنه حريص على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب. ويخطئ، والله، من يظن أن أكثر الأسراء، لا سيما منهم الفقراء، لا يشعرون بالأم الأسر، مستدلا بأنهم لو كانوا يشعرون لبادروا إلى إزالتها، والحقيقة في ذلك أنهم يشعرون بأكثر الآلام ولكنهم لا يدركون ما هو سببها، ومن أين جاءتهم، فيرى أحدهم نفسه مقبضا عن العمل، لأنه غير أمين على اختصاصه بالثمرة، وربما ظن السلب حقا طبيعيا للأقوياء، فيتمنى أن لو كان منهم، تم يعمل نارة ولكن بدون نشاط ولا إتقان، فيفشل ضرورة، ولا يدري أيضا ما السبب. فيغضب على ما يسميه سعدا أو حظا أو طالعا أو قدرا. والمسكين من أين له أن يعرف أن النشاط والإتقان لا يتأتيان إلا مع لذة انتظار النجاح في العمل، تلك اللذة التي قدر الحكماء أنها اللذة الكبرى، لا استمرار زمانها من حين العزم إلى تمام العمل، والأسير لا اطمئنان فيه على الاستمرار، ولا تشجيع له على الصبر والجلد.

الأسير المعذب المنتسب إلى دين يسلى نفسه بالسعادة الآخروية، فيعدها بجنان ذات أفنان ونعيم مقيم أعد له الرحمن. وينعد عن فكه أن الدنيا عنوان الآخرة. وأنه ربما كان خاسر الصنفين. بل ذلك هو الكائن غالباً. ولهبطاء الإسلام مسليات أظنها خاصة بهم يعطفون مصائبهم عليها وهي نحو قولهم: الدنيا سجن المؤمن، المؤمن مصاب، إذا أحب الله عبدا ابتلاه، هذا شأن آخر الزمان، حسب المرء لقيمات يقمن عليه: ويتناسون حديث: «إن الله يكره العبد البطال»^(١) والحديث المفيد معنى «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم عصاة فلينحرسها»^(٢)، ويتغافلون عن النص القاطع الموحل قيام الساعة إلى ما بعد استكمال الأرض زخرفتها وزينتها. وأين ذلك بعد؟

وكل هذه المسليات المثبطات تهون عند ذلك السم القاتل، الذي يحول الأذهان عن التماس معرفة سبب الشقاء، فيرفع المسؤولية عن المستبددين ويلقيها على عاتق القضاء والقدر، بل على عاتق الأسراء المساكين أنفسهم. وأعني بهذا السم: سوء فهم العوام، بله^(٣) الخواص، لما ورد في التوراة من نحو: «اخضعوا للسلطان ولا سلطة إلا من الله» و«الحاكم لا يتقلد السيف جزافاً، إنه مقام للانتقام من أهل البسر»، ولما ورد في الرسائل^(٤) من نحو: «قل تخضع كل نسمة للسلطة المقامة من الله»، وقد صاغ وعاظ المسلمون ومحدثوهم من ذلك قولهم: «السلطان ظل الله في الأرض». و«الظالم سيف الله يتقم به ثم يتقم منه». و«الملوك منهم سواد». هذا وكل ما ورد في هذا المعنى، إن صح، فهو مفيد بالعدالة. أو محتمل للتأويل بما يعقل. وبما ينطبق على حكم الآية الكريمة التي فيها فصل الخطاب. وغير: «اللعنة الله على الظالمين» (مرد: ١٨) وآية «فلا تعبدوا إلا على الظالمين» (البقرة: ٢٩٣).



(١) هذه الآية المعنى. وليس باللفظ.

(٢) رواه الإمام أحمد.

(٣) في الأصل المنقح. ويند وما تشاء من الطبعة الأولى.

(٤) أنى رسائل بولس.

التربية علم وعمل . وليس من شأن الأمم المملوكة شؤونها ، أن يوجد فيها من يعلم التربية ولا من يعملها^(١) ، حتى إن الباحث لا يرى عند الأمراء علما في التربية مدفونا في الكتب فضلا عن الأذهان . أما العمل فكيف يتصور وجوده بلا سبق عزم ، وهو بلا سبق يقين ، وهو بلا سبق علم ، وقد ورد في الأثر « النية سابقة العمل » ، وورد في الحديث : « إنما الأعمال بالنيات » . بناء عليه ما أبعد الناس المغصوبة إرادتهم المغلوطة أيديهم ، عن توجيه الفكر إلى مقصد مفيد كالتربية ، أو توجيه الجسم إلى عمل نافع كتمرين الوجه على الخياء والقلب على الشفقة .

نعم ما أبعد الأسراء عن الاستعداد لقبول التربية ، وهي قصر النظر على المحاسن والعبر ، وقصر السمع على الفوائد والحكم ، وتعويد اللسان على قول الخير ، وتعويد اليد على الإتقان ، وتكبير النفس عن السفاسف ، وتكبير الوجدان عن قصرة الباطل ، ورعاية الترتيب في الشئون ، ورعاية التوفير في الوقت والمال ، والاندفاع بالكلية لحفظ الشرف ، لحفظ الحقوق ، ولحماية الدين ، لحماية الثاموس ، ولحب الوطن ، لحب العائلة ، ولإعانة العلم ، لإعانة الضعيف ، ولاحتقار الظالمين . لا حتقار الحياة . إلى غير ذلك مما لا ينس إلا في أرض العدل ، تحت سماء الحرية ، في رياض التربيين العائلية والقومية .

الاستعداد يضطر الناس إلى استباحة الكذب والتحيل والخداع والتناق والتدلل ، وإلى مراغمة الحس وإماتة النفس ونهذ الجسد وترك العمل ، إلى آخره . وينتج من ذلك أن الاستعداد المشؤوم ، هو يتولى يطبعه تربية الناس على هذه الخصال الملعونة . بناء عليه يرى الآباء أن تعيهم في تربية الأبناء التربية الأولى على غير ذلك لا بد من أن يذهب عبثا تحت أرجل تربية الاستعداد ، كما ذهب قبلها تربية أبائهم لهم ، أو تربية غيرهم لأبنائهم سدى .

ثم إن عبيد السلطة التي لا حدود لها هم غير مالكي أنفسهم . ولا هم امنون على أنهم يربون أولادهم لهم . بل هم يربون أعماما للمستبدين ، وأعوانا لهم عليهم . وفي الحقيقة إن الأولاد في عهد الاستعداد ، هم سلاسل من حديد يرتبط بها

(١) في الأصل المنقح : يعلمها ، وما أشتاء عن الطبعة الأولى

الآباء على أوناد الظلم والهوان والخوف والتضييق. فالتوالد. من حيث هو، ومن الاستبداد حقيق، والاعتناء بالتربية حقيق مضاعف! وقد قال شاعر:

إن دام هذا ولم تحدث له غير لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

وعالب الأسراء لا يدفعهم للزواج قصد التوالد، إنما يدفعهم إليه الجهل المظلم، وإنهم، حتى الآن، لا يدفعهم، محرومون من كل الملذات الحقيقية: كلفة العلم وتعليمه، ولذة المجد والحماية، ولذة الإيثار والبذل، ولذة إحراز مقام في القلوب، ولذة نقوذ الرأي الصائب، ولذة كبر النفس عن السقاسف، إلى غير ذلك من الملذات الروحية.

أما ملذات هؤلاء التبعاء فهي منقوصة على لذتين اثنتين الأولى منهما لذة الأكل، وهي جعلهم بطونهم مقابل للحبوانات، إن تبسرت، والافساريل للنسبات. أو جعلهم أجسامهم في الوجود كما قبل أنابيب بين المطبخ و«الكنيف»^(١)، أو جعلها معامل أعدت لتجهيز الأخشين. واللذة الثانية هي الرعشة باستفراغ الشهوة، كأن أجسامهم خلقت مقابل دماغ جرب على أديم الأرض. يطيب لها الحك، ووظيفتها توليد الصيد ودفعه: وهذا الشره البهيمي في اليعال^(٢) هو ما يعنى الأسراء فيربونهم بالزواج والتوالد.

العرض، زمن الاستبداد، كسائر الحقوق غير مصون. بل هو معرض لهتك النساق من المستبدين والأشرار من أعوانهم. فإنهم، كما أخبر القرآن عن الفراعنة، يأسرون الأولاد ويستحيون النساء، خصوصاً في الخواصر الصغيرة والفرى المستضعف أهلها. ومن الأمور المشاهدة أن الأمم التي تقع تحت أسر أمة تغايرها في السيماء، لا يرضى عليها أجيال إلا وتفشو فيها سيماء الأسرين: كسواد العيون في الإسبانيول، وبياض البشرة في الإفريقين، وعدم الاطمئنان على العرض، يضعف الحب الذي لا يتم إلا بالاختصاص، ويضعف لصققة الأولاد بأزواج أمهاتهم فتضعف الغيرة على تحمل مشاق التربية. تلك الغيرة التي لأجلها شرع الله النكاح وحرم السفاح.

(١) هو المرحاض.

(٢) مفردها: يعال، وهو اليرج.

للسعة والفقر أيضا دخل كبير في تسهيل التربية، وأين الأسراء من السعة؟ كما أن لانتظام المعيشة، ولو مع الفقر، علاقة قوية في التربية، ومعيشة الأسراء، أغنياء كانوا أو معدمين، كلها خلل في خلل وضيق في ضيق، وذلك يجعل الأسير حين النفس، وهذه هي أولى دركات الانحطاط، ويرى ذاته لا يستحق المزيد في النعيم، قطعاً ومشرى وملباً ومسكناً، وهذه هي ثانية الدركات، ويرى استعداداً قاصراً عن الترقى في العلم، وهذه ثالثتها، ويرى حياته، على بساطتها، لا تقوى إلا بمعاونة غيره له، وهذه رابعتها، وهلم جرا!

بناء عليه ما أبعد الأسراء عن النشاط للتربية، ثم لماذا يتحملون مشاق التربية وهم إن نوروأ أولادهم بالعلم جنوا عليهم بتقوية إحساسهم، فيريدونهم شقاء ويريدونهم^(١) بلاء، ولهذا لا غرو أن يختار الأسراء، الذين فيهم^(٢) بقية من الإدراك، ترك أولادهم هملاً تحرفهم البلاءة إلى حيث تشاء.

وإذا افكرنا كيف ينشأ الأسير في البيت الفقير وكيف يتربى، نجد أنه يلقح به وفي الغالب أبواه متناكدان متشاكسان. ثم إذا تحرك جنينا حرك شراسة أمه فشمته، أو زاد آلام حياتها فضربت. فإذا ما نما ضيق عليه بطنها لألفتها الانحناء خمولا والتصرر صغاراً، والتقلص لضيق فراش الفقير. ومتى ولدته ضغطت عليه بالقماط، اقتصاداً أو جهلاً، فإذا تألم وبكى سدت فمه بشديها، أو (قطعت)^(٣) نفسه خضاً أو بدوار السرير، أو سقته مخدراً عجزاً عن نفقة الطبيب. فإذا ما فطم، يأتيه الغذاء الفاسد يضييق معدته ويفسد مزاجه، فإن كان قوى البنية طویل العمر وترعرع، يجنح من رياضة اللعب لضيق البيت. فإن سأل واستفهم ماذا؟ وما هذا؟ ليتعلم، يزجر ويلكم لضيق خلق أبويه، وإن جالسهما ليألف المعاشرة ويشفي عنه التوحش، يبعدانه كي لا يقف على أسرارهما فيمنترقها منه الجيران الخطاء، فتنتهي إلى أعوان الظالمين وما أكثرهم. فإذا قويت رجلاه يدفع به إلى خارج الباب، إلى مدرسة الألفة على القدارة، وتعلم صيغ الشائم والسباب، فإن عاش ونشأ وضع في مكتب أو عند ذي صنعة، فيكون أكبر القصد ربطه عن السراح والمراح، فإذا بلغ

(١) في الأصل المتح: ويريدونهم، وما أثبتناه عن الطبعة الأولى.

(٢) في الأصل المتح: قبيها، وما أثبتناه عن الطبعة الأولى.

(٣) غير موجودة في الأصل المتح، وأثبتناها عن الطبعة الأولى.

الشباب، ربطه أولياؤه على وقد الزواج كى لا يفرد من مشاكلهم فى شقاء الحياة، ليجنى هو على نسله كما جنى عليه أبواه. ثم هو يتولى التضيق على نفسه بأطواق الجهل وقيود الخوف، ويتولى المستبدون التضيق على عقله ولسانه وعمله وآمله.

وهكذا يعيش الأسير من حين يكون نسمة فى ضيق وضغط، يهرول ما بين عتبة هم وواذى غم، يودع سقما ويستقبل سقما إلى أن يفوز بنعمة الموت مضيقا دنياه مع آخرته، فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه.

وما أظلم من يؤخذ الأسراء على عدم اعتنائهم بلوازم الحياة، فالنظافة مثلا: لماذا يهتم بها الأسير؟ هل لأجل صحته وهو فى مرض مستعير؟ أم لأجل لذته وهو المتألم كيفما تقلب جسمه أو نظره؟ أم لأجل ذوق من يجانس أو يؤاكل، وهو من عفت نفسه صحبة الحياة؟

ولا يظن المطالع أن حالة أغنياء الأسراء هى أقل شرا من هذا. كلا، بل هم أشقى وأقل عافية وأقصر عمرا من هذا، إذا نقصتهم بعض المنغصات، تزيد فيهم مشاق التظاهر بالراحة والرفاه والعزة والمنعة، تظاهرا إن صح قليله فكثيره الكاذب حمل ثقل على عواتقهم، كالسكران يتصاحى فيبتلى بالصنعا، أو كالعاهرة الياسة تتصاحك لترضى الزانى!

حياة الأسير تشبه حياة النائم المزعوج بالأحلام، فهى حياة لا روح فيها، حياة وظيفتها تمثيل مندرسات الجسم فقط ولا علاقة لها بحفظ المزايا البشرية، وبناء على هذا، كان فاقد الحرية لا أبنائية^(١) له لأنه ميت بالنسبة لنفسه، حى بالنسبة لغيره، كأنه لا شيء فى ذاته، إنما هو شيء بالإضافة. ومن كان وجوده فى الوجود بهذه الصورة، وهى الفناء فى المستبدين، حق له ألا يشعر بوظيفة شخصية فضلا عن وظيفة اجتماعية. ولولا أن ليس فى الكون شيء غير تابع لنظام، حتى الجماد، حتى فلتات الطبيعة والمصادفات التى هى مسببات لأسباب نادرة، لحكمنا بأن معيشة الأسراء هى محض فوضى، لا شبه فوضى.

على أن التدقيق العميق، يفيدنا بأن للأسراء، قوانين غريبة فى مقاومة الفناء

(١) أى لا دائمية ولا استقلال

يصعب ضبطها وتعريفها، إنما الأسير يرضعها مع لبن أمه ويتربى عليها، وقد يلدغ فيها بسائق الحاجة، ويكون منهم الخاذق فيها علما، الماهر في تطبيقها عملا، هو الموفق في ميدان حرب الحياة مع الذل كاليهود واليهود. والعاجز عنها، إما جاهل هذا القانون أو العاجز فطرة عن اتباعه كالعرب مثلا. فلا يخرج عن كونه كرة يلعب بها صبيان الاستبداد، ثارة يضربون بها الأرض أو الحيطان، وأخرى تتناولها أرجلهم بالصفعان، وهذا إذا كان عاجز الأسير عن جهل، وأما إذا كان عجزه كما يقال عن عرق هاشمي، أي عن شيء من كرامة نفس أو قوة إحساس أو جسارة جنان، فيكون كاخجارة تتكسر ولا تلتين.

قوانين حياة الأسير هي مقتضيات الشؤون المحيطة به، التي تضطره لأن يطبق إحساساته عليها ويدير نفسه على فوجيها، وذلك نحو مقابلة التجبر عليه بالتذلل والتضاغر، وتعديل الشدة عليه بالتلاين والمطاوعة، وإعطاء المطلوب منه بعد قليل من التمتع ولو أن المطلوب هو ابنه لمجزرة الجندية أو بنته لفراش شيخ شرير، والمطالبة في الحقوق بصفة استعطاف كأنه طالب صدقة، وكسب المعاش مع شكاية الحاجة، وحفظ المال بإخفائه عن الأعين، والتعاضد عن زلات المستبدين، والنصام عن سماع ما يهان به، والتظاهر بفقد الحس أو تعطيله بالمخدرات القوية كالافيون والخشيش، وتعطيل العقل بالتبالة وستر العلم بالتجاهل، والارتداء بالندين والرياء، وتعبير اللسان على الزلافة في عبارات التضاضر والتملق، وعزو كل خير إلى فضل المستبدين حتى إذا كان الخير طبعيا نحو مطر السماء، فعزوه إلى يمن الحكام أو دعاء الكهائن، ويستند كل شر ولو من نوع التسلط على الأعراض، إلى الاستحقاق من جانب الله، إلى غير ذلك من أحكام ذلك القانون، الذي رؤوس مسائله فقط تمل القارئ، فضلا عن تفصيلاتها.

إن أخوف ما يخافه الأسير هو أن يظهر عليه أثر نعمة الله في الجسم أو المال، فتضيقه عين الجواسيس (وهذا أصل عقيدة: إصابة العين)؛ أو أن يظهر له شأن في علم أو جاه أو نعمة مهمة، فيسعى به حاسدوه إلى المستبد (وهذا أصل شر الحسد الذي يتعود منه)؛ وقد يتحيل الأسير على حفظ ماله الذي لا يمكنه إخفاؤه كالزوجة الجميلة، أو الدابة الثمينة، أو الدار الكبيرة، فيحسبها بإسناد الشؤم، (وهذا أصل التباؤم بالأقدام والنواصي والأعتاب).

ومن غريب الأحوال أن الأسراء يعضضون المستبد، ولا يقوون على استعمالهم معه البأس الطبيعي الموجود في الإنسان إذا غضب، فيصرفون بأسهم في وجهة أخرى ظلما: فيعاهدون من بينهم فئة مستضعفة، أو الغرباء، أو يظلمون نساءهم ونحو ذلك. ومثالهم في ذلك مثل الكلاب الأهلية، إذا أريد منها الحراسة والشراسة، فأصحابها يربطونها نهارا ويطلقونها ليلا فتصير شرمة عقورة، وبهذا التعليل تعلل جسارة الأسراء أحيانا في محارباتهم، لا أنها جسارة عن شجاعة، وأحيانا تكون جسارة الأسراء عن التناهي في الجبنة أمام المستبد، الذي يسوقهم إلى الموت فيطيعونه اندعارا كما تطيع الغنمة الذئب، فتنهول بين يديه إلى حيث يأكلها.

* * *

وقد اتضح مما تقدم أن التربية غير مقصودة ولا مقدورة في خلال الاستبداد، إلا ما قد يكون بالتحريف من القوة القاهرة، وهذا النوع يستلزم انخلاع القلوب لا تركية النفوس. وقد أجمع علماء الاجتماع والأخلاق والتربية على أن الإقناع خير من الترغيب فضلا عن التهيب، وأن التعليم مع الحرية بين المعلم والمتعلم، أفضل من التعليم مع الوفاق، وأن التعليم عن رغبة في التكميل أوسع من العلم الحاصل طمعا في المكافأة، أو غيرة من الأقران. وعلى هذه القاعدة بنوا قولهم: إن المدارس تقلل الجنايات لا التسجون، وقولهم: إن القصاص والمعاقبة قلما يفيدان في زجر النفس، كما قال الحكميم العربي:

لا ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

ومن يتأمل جيدا في قوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾ (البقرة: ١٧٩) ملاحظا أن معنى القصاص لغة هو التساوى مطلقا، لا مقصورا على المعاقبة بالمثل في الجنايات فقط، ويدقق النظر في القرآن الكريم وسائر الكتب السماوية، ويتبع مسالك الرسل العظام عليهم الصلاة والسلام، يرى أن الاعتناء في طريق الهداية فيها منصرف إلى الإقناع، ثم إلى الأطماع عاجلا أو آجلا، ثم إلى التهيب الآجل غالبا ومع ترك أبواب تدلى إلى النجاة.

ثم إن التربية هي ضالة الأمم، وفقدتها هو المصيبة العظمى، وهي المسألة الاجتماعية حيث الإنسان يكون إنسانا بتربيته، وكما يكون الآباء يكون الأبناء.

وكما تكون الأفراد تكون الأمة . والتربية المطلوبة هي التربية المرتبة على إعداد العقل للتصميم . ثم على حسن التفهيم والإقناع ، ثم على تقوية الهمة والعزيمة ، ثم على التمرين والتعويد ، ثم على حسن القدوة والمثال ، ثم على المواظبة والإتقان ، ثم على التوسط والاعتدال ، وأن تكون تربية العقل نضجوبة بتربية الجسم ، لأنهما متصاحبان صحة واعتدالا ، فإنه يقتضى تعويد الجسم على النظافة وعلى تحمل المشاق ، والمهارة في الحركات ، والتوقيت في النوم والغذاء والعبادة ، والترتيب في العمل وفي الرياضة والراحة . وأن تكون تلكما التربيستان مصحوبتين أيضا بتربية النفس على معرفة خالقها ومراقبته والخوف منه . فإذا كان لا فطمع في التربية العائنة على هذه الأصول بمانع طبيعة الاستبداد ، فلا يكون لعقلاء المبطلين به إلا أن يسعوا أولا وراء إزالة المانع الضاغط على العقول ، ثم بعد ذلك يعتنوا بالتربية حيث يمكنهم حينئذ أن ينالوها على توالي البطون .



الاستبداد والترقي

الحركة سنة عاملة في الخليقة، دائبة بين شخوص وهبوط، فالترقي هو الحركة الحيوية، أى حركة الشخوص، ويقابله الهبوط، وهو الحركة إلى الموت أو الانحلال أو الاستحالة أو الانقلاب.

وهذه السنة كما هي عاملة في المادة وأعراضها، عاملة أيضا في الكيفيات وعمر كيانها، والقول الشارح لذلك آية: «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ» (الروم: ١٩)، وحديث: «ما تم أمر إلا وبدأ نقصه»، وقولهم: «التاريخ يعيد نفسه». وحكمهم بأن الحياة والموت حقان طبيعيان.

وهذه الحركة الجسمانية والنفسية والعقلية لا تقتضى السير إلى النهاية شخوصا أو هبوطا، بل هي أشبه بميزان الحرارة كل ساعة في شأن، والعبرة في الحكم للوجهة الغالبة، فإذا رأينا في أمة آثار حركة الترقي هي الغالبة على أفرادها، حكمنا لها بالحياة، ومتى رأينا عكس ذلك قضينا عليها بالموت.

الأمة هي مجموعة أفراد يجمعها نسب أو وطن أو لغة أو دين، كما أن البناء مجموع أنقاض، فحسبما تكون الأنقاض جتسا وجمالا وقوة يكون البناء. فإذا ترقّت أو انحطت أفراد الأمة ترقّت أو انحطت هيئتها الاجتماعية، حتى إن حالة الفرد الواحد من الأمة تؤثر في مجموع تلك الأمة. كما إذا اختلت حجرة من حصن يخلت مجموعته، وإن كان لا يشعر بذلك، كما لو وقفت بعوضة على طرف سفينة عظيمة أثقلتها وأمالتها حقيقة وإن لم يدرك ذلك بالمشاعر، وبعض السياسيين

بنى على هذه القاعدة أنه يكفي الأمة رقياً أن يجتهد كل فرد منها في ترقية نفسه بدون أن يفكر في ترقى منجموع الأمة.

الترقى الحيوى الذى يتدرج فيه الإنسان بفطرته وهيمته هو:

أولاً: الترقى فى الجسم صحة وتلذذاً.

ثانياً: الترقى فى القوة بالعلم والمال.

ثالثاً: الترقى فى النفس بالخصال والمفاخر.

رابعاً: الترقى بالعائلة استئناساً وتعاوناً.

خامساً: الترقى بالعشيرة تناصراً عند الطوارئ.

سادساً: الترقى بالإنسانية وهذا ينتهى الترقى.

وهناك نوع آخر من الترقى يتعلق بالروح وبالكمال، وهو أن الإنسان يحمل نفساً ملهمة بأن لها وراء حياتها هذه حياة أخرى تترقى إليها على سلم العدل والرحمة والحسنات. فأهل الأديان، ما عدا أهل التوراة، يؤمنون بالبعث أو التناسخ، فيأتون بالعدل والرحمة رجاء المكافأة أو خوف المجازاة، و(من)^(١) هم من قبيل الطبيعيين يعتبرون أنفسهم مدينين للإنسانية بحفظها تاريخ الحياة الطبيعية، فيلتزمون خدمتها اهتماماً بحياتهم التاريخية بحسن الذكر أو قبحه.

وهذه التراقيات، على أنواعها الستة، لا يزال الإنسان يسعى وراءها ما لم يعترضه مانع غالب يسلب إرادته، وهذا المانع إما هو القدر المحتوم، المسئى عند البعض بالعجز الطبيعى، أو هو الاستبداد المشؤوم. على أن القدر قد يصدم سير الترقى لمحة ثم يطلقه فيكر راقياً. وأما الاستبداد فإنه يقلب السير من الترقى إلى الانحطاط، من التقدم إلى التأخر، من النساء إلى الفناء، ويلازم الأمة ملازمة الغريم الشحيح، ويفعل فيها دماراً طويلاً أفعاله التى تقدم وصف بعضها فى الأبحاث السابقة، أفعاله التى تبلغ بالأمة حطة العجماوات، فلا يهمها غير حفظ حياتها الحيوانية فقط، بل قد تبيح حياتها هذه الدنيئة أيضاً للاستبداد بإباحة ظاهرة أو

(١) فى الأصل المنقح: وهم، وبإثباته عن الطبعة الأولى

خفية. ولا عار على الإنسان أن يختار الموت على ذلك، وهذه سباع الطير والوحوش إذا أسرت كبيرة قد تأبى الغذاء حتى تموت.

وقد يبلغ فعل الاستبداد بالأمة أن يحول ميلها الطبيعي من طلب الترقى إلى طلب التسفل، بحيث لو دفعت إلى الرفعة لأبت وتألّت كما يتألّم الأجهر من التور، وإذا ألزمت بالحرية تشقى وربما تفنى كالبهائم الأهلية إذا أطلق سراحها. وعندئذ يصير الاستبداد كالعلق^(١) يغلب له المقام على امتصاص دم الأمة، فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها.

وتوصف حركة الترقى والانحطاط في الشؤون الحيوية للإنسان أنها من نوع الحركة الدودية، التي تحصل بالاندفاع والانقباض، وذلك أن الإنسان يولد وهو أعجز حراكا وإذراكا من كل حيوان، ثم يأخذ في السير تدفعا «الغائب» النفسية والعقلية وتقيضه «الموانع» الطبيعية والمزاحمة. وهذا سر أن الإنسان يتباه بالخير والشر، وهو سر ما ورد في القرآن الكريم من ابتلاء الله الناس بالخير والشر، وهو معنى ما ورد في الأثر من «أن الخير مربوط بذيل الشر، والشر مربوط بذيل الخير»، وهو المراد من أقوال الحكماء نحو: «على قدر النعمة تكون الشفقة، على قدر الهمم تأتى العزائم، بين السعادة والشقاء حرب سجال، العاقل من يستفيد من مصيبته والكس من يستفيد من مصيبته ومصيبه غيره، والحكيم من يتهج بالمصائب يكتشف منها القوائد، ما كان في الحياة لذة لو لم يتخللها آلام».

فإذا تقرر هذا فليعلم أيضا أن سبيل الإنسان هو إلى الترقى، ما دام جناحا الاندفاع والانقباض فيه متوازنين كتوازن الإيجابية والسلبية في الكهربائية، وسيله التهجى إن غلبته الطبيعة أو المزاحمة، ثم إن الاندفاع إذا غلب فيه العقل النفس، كانت الوجهة إلى الحكمة، وإن غلبت النفس العقل، كانت الوجهة إلى الزيف. أما الانقباض فالاعتدل منه هو السائق للعمل، والقوى منه مهلك مسكن للحركة، والاستبداد المشؤوم الذى تبحث فيه هو قايض ضاعط مسكن، والمبتلون به هم المساكين. نعم: أسراء الاستبداد أحق بوصف المساكين من عجرة الفقراء.

(١) دودية مبداء تقتبس الدم. والعلق جمع مفردة علقه.

ولو ملك الفقهاء حرية النظر خرجوا من الاختلاف في تعريف المساكين الذين جعل لهم الله نصيبا من الزكاة، فقالوا: هم عبيد الاستبداد، وجعلوا كفارات فك الرقاب تشمل هذا الرق الأكبر!

أسراء الاستبداد، حتى الأغنياء منهم. كلهم مساكين لا حراك فيهم، يعيشون منحنين في الإدراك، منحنين في الإحساس، متحطين في الأخلاق. وما أظلم توجيه البلوم عليهم بغير لسان الرافة والإرشاد، وقد أبدع من شبه حالتهم بدود تحت صخرة، فما البق باللائمين أن يكونوا مشفقين يسعون في رفع الصخرة ولو حتى بالأظافر ذرة بعد ذرة.

قد أجمع الحكماء على أن أهم ما يجب غسله على الآخذين بيد الأمم، الذين فيهم نسمة مروءة وشرارة حمية، الذين يعرفون ما هي وظيفتهم بإزاء الإنسانية، الملتزمين لإخوانهم العاقية، أن يسعوا في رفع الضغط عن العقول لينطلق سبيلها في النمو فتمزق غيوم الأوهام التي تظلم المخاوف، شأن الطبيب في اعتناؤه أولا بقوة جسم المريض، وأن يكون الإرشاد متناسبا مع الغفلة خفة وقوة: كالساهر يشبه الصوت الخفيف، والنائم يحتاج إلى صوت أقوى، والغافل يلزمه صياح وزجر. فالأشخاص من هذا النوع الأخير، يقتضى لإيقاظهم الآن بعد أن ناموا أجبالا طويلة، أن يسقيهم الطعاسى البارح مرا من الرواجر والفراش عليهم يفيقون، وإلا فهم لا يفيقون، حتى يأتي القضاء من السماء: فتبرق السيوف وترعد المدافع وتظهر البنادق، فحينئذ يصحون ولكن صحوة الموت!



بعض الاجتماعيين في الغرب يرون أن الدين يؤثر في التورق الأفرادى سم الاجتماعى تأثيرا معطلا كتفعل الأفيون فى الحسى، أو حاجبا كالقيم يعشى نور الشمس. وهناك بعض الغلاة يقولون: الدين والعقل ضدان متزاحمان فى الرؤوس، وإن أول نقطة من التورق تبدئ عند آخر نقطة من الدين، وإن أصدق ما يستدل به على مرتبة الرقى والانحطاط فى الأفراد أو فى الأمم الغائرة والحاضرة، هو مقياس الارتباط بالدين قوة وضعفا.

هذه الآراء كلها صحيحة لا مجال للرد عليها، ولكن بالنظر إلى الأديان الخرافية

أساساً، أو التي لم تقف عند حد الحكمة، كالدين المبني على تكليف العقل بتصور أن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد، لأن مجرد الإدعان لما لا يعقل يرهان على فسناد بعض مراكز العقل، ولهذا أصبح العالم المتمدن يعد الانتساب إلى هذه العقيدة من العار، لأنه شعار الحمق.

أما الأديان المبنية على العقل المحض كالإسلام الموصوف بدين الفطرة - ولا أعنى بالإسلام ما يدين به أكثر المسلمين الآن، إنما أريد بالإسلام: دين القرآن، أي الدين الذي يقوى على فهمه من القرآن كل إنسان غير مقيد الفكر بتفصيح زيد أو تحكيم عمرو - فلا شك في أن الدين إذا كان مبنياً على العقل، يكون أفضل صارف للفكر عن الوقوع في مصائد المخرفين، وأنفع وأزج يضبط النفس من الشطط، وأقوى مؤثر لتهديب الأخلاق، وأكبر معين على تحمل مشاق الحياة، وأعظم منشط على الأعمال المهمة الحظرة، وأجل مثبت على المبادئ الشريفة، وفي النتيجة يكون أصبح مقياس يستدل به على الأحوال النفسية في الأمم والأفراد رقياً وانحطاطاً.

هذا القرآن الكريم إذا أخذناه وقهرناه بالتروى في معاني الفاظه العربية وأسلوب تركيبه القرشي، مع تفهم أسباب نزول آياته وما أشارت إليه، ومع التبصر في مقاصده الدقيقة وتشريعه السامي، ومع أخذ بعض التوضيحات من السنة العملية النبوية أو الإجماع إن وجداً، وقلمنا يوجدان، فحينئذ لا نرى فيه من أوله إلى آخره غير حكم يتفاهم العقل بالإجلال والإعظام، إلى درجة انقياد العقل طوعاً أو كرها للإيمان إجمالاً بأن تلك الحكم حكم عزيزة إنهمية، وأن الذي أنزلها الله على قلبه هو أفضل من أرسله الله مرشداً لعباده.

وتوضيح ذلك: أن الناظر في القرآن حتى النظر برى أنه لا يكلف الإنسان قط بالإدعان لشيء فوق العقل، بل يحذره وينهاه من الإيمان اتباعاً لرأى الغير أو تقليداً للأبناء. ويراه طافحاً بالتنبيه إلى أعمال الإنسان فكره ونظيره في هذه الكائنات وعظيم انتظامها. ثم الاستدلال بذلك إلى أن لهذه الكائنات صفات أبدعها من العدم، ثم الانتقال إلى معرفة الصفات التي يستلزم العقل أن يكون هذا الصانع متصفاً بها، أو منزهاً عنها، ثم يرى القرآن يعلم الإنسان بعض أعمال وأحكام وأوامر ونواه كلها لا تبلغ المائة عدداً، وكلها بسيطة معقدة، إلا قليلاً من الأمور التعبدية التي شرعت

لتكون شعارا يعرف به المسلم أخاه، أو يستطلع من خلال قيامه بها أو تهاونه فيها أخلاقه، فيستدل مثلا بالتكاسل عن الصلاة على فقد النشاط، وبترك الصوم على عدم الصبر، وبالسكر على غلبة النفس العقل، ونحو ذلك.

وكفى بالإسلامية رقيا في التشريع، رقيها بالبشر إلى منزلة حصنها أسارة الإنسان في جهة شريفة واحدة وهي «الله»، وعتقها عقل البشر عن توهم وجود قوة ما في غير الله من شأنها أن تأتي للإنسان بخير ما، أو تدفع عنه شرا ما. فالإسلامية تجعل الإنسان لا يرجو ولا يهاب من رسول أو نبي أو ملك أو فلک، أو ولي أو جنى، أو ساحر أو كاهن، أو شيطان أو سلطان.

وأعظم بهذا التعليم الذي يرمى الإنسان به عن عاتقه جبالا من الخوف والأوهام والخيالات. جبالا اعتقلها منذ كان يسرح مع الغيلان، أو ورثها من أبيه آدم الذي طغاه شيطان النفس. أو ليس العتيق من الأوهام يصبح صحيح العقل، قوى الإرادة، ثابت العزيمة، قائد الحكمة، سائق الوجدان، فيعيش حرا، فرحا ضهورا فخورا، لا يبالي حتى بالموت لعلمه بالسعادة التي يستقبلها، التي يمثلها له القرآن بالجنان فيها الروح والريحان، والخور والغلمان، فيها كل ما تشتهي النفس وتقير به العيان؟!

وأظن أن هؤلاء المنكرين فائدة الدين، ما أنكروا ذلك إلا من عدم اطلاعهم على دين صحيح، مع بأسهم من إصلاح ما لديهم، عجزا عن مقاومة أنصار الفساد. وإذا نظرنا في هؤلاء أنفسهم نجدهم في آن واحد يشددون النكير على الدين من جهة قائلين إن ضرره أكبر من نفعه، ويهيجون من جهة أخرى مؤثرات أدبية وهمية محضاً يرون أنه لا يد منها في بناء الأمم، وذلك مثل حب الوطن وحياته، وحب الإنسانية والإساءة إليها، والسمعة الحسنة وعكسها، والذكر التاريخي بالخير أو الشر، ونحو ذلك مما هو لا شيء في ذاته، ولا شيء أيضا بالنسبة إلى تأثير طاعة الله والخوف منه، لأن «الله» حقيقة لا ريب فيها، بل ولا خلاف إلا في الأسماء بين «الله» وبين «مادة» أو «طبيعة». ولولا أن الماديين والطبيعيين يابون الاسترسال في البحث في صفات ما يسمونه مادة أو طبيعة، لالتقوا ولا شك مع الإسلام في نقطة واحدة، فارتفع الخلاف العلمي وأسلم الكل لله.



وعلى ذكر النجوم الإرشادي، لاج لي أن أصور الرقي والاحتفاظ في النفس . وكيف ينبغي للإنسان العاقل أن يعاني إيقاظ قومه، وكيف يرشدتهم إلى أنهم خلقوا لغيرنا هم عليه من الصبر على الذل والسفالة، فيذكرهم ويحرك قلوبهم ويناجيهم وينذرهم بنحو الخطابات الآتية :

"يا قوم: ينازعني والله الشعور، هل يوقفي هذا في جسع حتى فأحييه بالسلام، أم أنا أخطب أهل القيور فأحييهم بالرحمة؟! يا هؤلاء، لستم بأحياء عاملين، ولا أصوات مستوريحين، بل أنتم بين بين: في برزخ يسمى التبت . ويصح تشبيهه بالنوم ! يارياه ! إني أرى أشباح أناس يشبهون ذوي الحياة، وهم في الحقيقة موتى لا يشعرون، بل هم موتى لأنهم لا يشعرون".

"يا قوم: هذاكم الله، إلى متى هذا الشقاء المديد والناس في عيم عقيم . وحز كرم؟! أفلا تنظرون؟! وما هذا التأخر وقد سبقتمكم الأقوام ألف مرار، حتى صار ما بعد ورائكم وراء^(١)! أفلا تتبعون؟! وما هذا الانخفاض والناس في أوج الرفة، أفلا تغارون؟! أناشدكم الله، هل طابت لكم طول غيبة الصواب عنكم؟ أم أنتم كأهل ذلك الكهف ناموا ألف عام ثم قاموا، وإذا بالدنيا غير الدنيا والناس غير الناس فأخذتهم الدهشة والتمرموا السكون؟!!"

"يا قوم: وثاكم الله من الشر، أنتم بعيدون عن مفاخر الإبداع وشرف القدرة، مبتلون بداء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل . وبداء الحرص على كل عتيق كأنكم خلقتكم للماضي لا للحاضر! تشكون حاضركم وتسخطون عليه، ومن لي أن تذكروا أن حاضركم نتيجة ماضيكم؟ ومع ذلك أراكم تقلدون أجدادكم في الرساوس والخرافات والأمور السافلات فقط، ولا تقلدونهم في محامدهم! أين الدين؟ أين التربية؟ أين الإحساس؟ أين الغيرة؟ أين الجسارة؟ أين الثبات؟ أين الرابطة؟ أين المنعة؟ أين الشهادة؟ أين النخوة؟ أين الفضيلة؟ أين المروسة؟ هل تسمعون أم أنتم صم لا تسمعون؟!!"

"يا قوم: عافاكم الله . إلى متى هذا النوم، وإلى متى هذا التغلب على تراش

(١) في الأصل المصح: أماما . وقد كتبت من الضمة الأولى .

البأس: ووسادة اليأس؟ أنتم مفتحة عيونكم ولكنكم نيام، لكم أبصار ولكنكم لا تنظرون! وهكذا لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور! لكم سمع ولسان ولكنكم صم بكم، ولكم شبيه الحنن ولكنكم لا تشعرون به ما هي اللذائذ حقاً؟ وما هي الآلام؟ ولكم رؤوس كبيرة ولكنها مشغولة بمزعجات الأوهام والأحلام، ولكم نفوس حقها أن تكون عزيزة، ولكنكم أنتم لا تعرفون لها قدراً ومقاماً!!

«يا قوم: فاقبل الله العباوة، فإنها قبالاً» (١) القلوب رعباً من لا شيء، وخوفاً من كل شيء، وتعمى الرؤوس تشويشاً وسخافة. اليسبب هي العباوة جعلتكم كأنكم قد مسكم الشيطان، فتخافون من ظلماتكم، وترهبون من قوتكم، وتجيئون منكم عليكم جيوشاً ليقتل بعضكم بعضاً؟! تتراخون على الموت خوفاً الموت، وتحيسون طول العصر فكرتكم في الدماغ ونطقكم في اللسان وإحساسكم في الوجدان خوفاً من أن يسجنكم الظالمون، وما يسجنون غير أرجلكم أياماً، فما بالكم يا أحلاس النساء (٢) مع الدل تخافون أن تصيروا جلاّس الرجال في السجون؟!»

«يا قوم: أعيدكم بالله من فساد الرأي، وضياع الحزم، وفقد الثقة بالنفس وترك الإرادة للغير. فهل ترون أثراً للرشد في أن يوكل الإنسان عنه وكيلاً ويطلق له التصريف في ماله وأهله، والتحكم في حياته وشرفه، والتأثير في دينه وفكره، مع تسليف هذا الوكيل العنصر عن كل عبث وخيانة وإسراف وإتلاف؟ أم ترون أن هذا النوع من الخطة به يظلم الإنسان نفسه؟ هل خلق الله لكم عقلاً لتفهموا به كل شيء، أم لتفهموه كأنه لا شيء؟ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون» (يونس: ٤٤).

«يا قوم: شفاكم الله، قد ينفع اليوم الإنذار والندم، وأما غداً إذا حل القضاء، فلا يبقى لكم غير الندب والبكاء، فيأني متى هذا التخادع والتخاذل؟! وإلى متى هذا التواني والتدابر؟ وإلى متى هذا الإهمال؟ هل طاب لكم النوم على الوسادة اللينة، وسادة الحسول؟ أم طاب لكم السكون، وتودون لو تسكنون القصور؟ أم عاهدتم

(١) في الأصل المنقح: قلبى. وما أيتاء عن الطبعة الأولى.

(٢) أحلاس النساء، أى ملازم النساء الذين لا يصححون إلا ملازمتهن.

أنفسكم أن تصلوا غفلة الحياة بالمهمات، فلا تفيقوا من السبات قبل صباح يوم
الشور، يوم تعلق السيوف رقابكم وتصبى المدافع أذانكم فتمسون الأذلاء حفا.
وحق لكم أن تذلوا؟!». .

«يا قوم: رحمكم الله، ما هذا الحرص على حياة تعيسة دنيئة لا تملكونها ساعة،
ما هذا الحرص على الراحة الموهومة وحياتكم كلها تعب ونصب؟ هل لكم في هذا
الصبر فخر، أو لكم عليه أجر؟ كلا والله ساء ما تتوهمون، ليس إلا التهر في
الحياة، وقبيح الذكر بعد الممات، لأنكم ما أقدمتم الوجود شيئا، بل أنفتم ما ورثتم
عن السلف وصرتم بشئ الواسطة للخلق. أستم يا ناس مديونين للأسلاف بكل ما
أنتم فيه من الترقى عن إنسان الغابات؟ فإذا لم تكونوا أهلا للمزيد فكونوا أهلا
للحفظ، وهذه العجماوات تنقل رقبها لنسائها بأمانة».

«يا قوم: حماكم الله، قد جاءكم المستمتعون من كل جند ينسلون، فإن
وجدوكم أبقاظا عاملوكم كما يتعامل الجيران ويتعامل الأقران، وإن وجدوكم
رقودا لا تشعرون سلبوا أموالكم، وزاحمواكم على أرضكم، وتحيلوا على
تذليلكم، وأوثقوا ربطكم واتخذوكم أنعاما، وعندئذ لو أردتم حراكا لا تقوون، بل
تجدون القيود مشدودة والأبواب مسدودة لا نجاة ولا مخرج».

«يا قوم: هون الله مصابكم، تشكون من الجهل ولا تتفكرون على التعليم نصف نأ
تصرفون على التدخين، تشكون من الأحكام، وهم اليوم منكم، فلا تسعون في
إصلاحهم، تشكون فقد الرابطة، ولكم روابط من وجود لا تفكرون في إحكامها.
تشكون الفقر ولا سبب له غير الكسل. هل ترجون الإصلاح وأنتم يخادع بعضكم
بعضا، ولا تخذعون إلا أنفسكم؟! ترضون بأدنى المعيشة عجزا تسمونه قناعة،
وتهملون شؤونكم تهاونا تسمونه تركا. تموهون عن جهلكم الأسباب بقضاء الله،
وتدفعون عار المسبات بعطفها على القادر، ألا والله ما هذا شأن البشر!».

«يا قوم: سامحكم الله، لا تظلموا الأقدار وخافوا غيرة المنعم الجبار. ألم
يخلقكم أكفاء أحرارا لئلا لا يثقلكم غير النور والتسليم، فأبيتم إلا أن تحملوا على
عوانتكم ظلم الضعفاء وقهر الأقرباء! لو شاء كبيركم أن يحمل صغيركم كرة
الأرض لحنى نه ظهره، ولو شاء أن يركبه لعطأ نه رأسه. ماذا استفدتم من هذا

الخضوع والخشوع لغير الله؟ وماذا ترجون من تقبيل الأذيال والأعشاب وخفض الصوت ونكس الرأس؟، أليس منشأ هذا الصغار كله هو ضعف ثقثكم بأنفسكم. كأنكم عاجزون عن تحصيل ما تقوم به الحياة؟ وحسب الحياة لقيمات من نبات يقمن ضلع ابن آدم. وقد بذلها الخلاق لأضعف الحيوان، هذه الوحوش تجد فرائسها أينما حلت، وهذه الهوام لا تفقد قوتها، فما بال الرجل منكم يضع نفسه مقام الطفل الذي لا ينال من الكبير مراده إلا بالتذلل والبكاء، أو موضع الشيخ الفاني الذي لا ينال حاجته إلا بالتسلى والدعاء؟»

«يا قوم: رفع الله عنكم المكروه، ما هذا التفاوت بين أفرادكم وقد خلقكم ربكم أكفاء في البنية، أكفاء في القوة، أكفاء في الطبيعة، أكفاء في الحاجات، لا يفضل بعضكم بعضاً إلا بالفضيلة، لا ربوبية بينكم ولا عبودية. والله ليس بين صغيركم وكبيركم غير برزخ من الورهم، ولو درى الصغير بورهم، العاجز بورهم، ما في نفس الكبير المتأله من الخوف منه لزال الإشكال وقضى الأمر الذي فيه تشقون. يا أعزاء الخلفة جهلاء المقام، كان الناس في دور الهسجية، فكان دهاتهم بينهم ألهة وأنبياء، ثم ترقى الناس فهبط هؤلاء لمقام الجبابرة والأولياء، ثم زاد الرقى فانحط أولئك إلى مرتبة الحكام والحكماء، حتى صار الناس ناساً فزال العماء وانكشف الغطاء وبان أن الكل أكفاء. فلأنشدكم الله في أي الأدوار أنتم؟ ألا تفكرون؟!»

«يا قوم: جعلكم الله من المهتدين، كان أجدادكم لا يتحنون^(١) إلا ركزعا لله، وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الإخوان. وأجدادكم ينامون الآن في قبورهم منسوتين أعزاء، وأنتم أحياء معوجة رقابكم أذلاء! البهائم تود لو تنتصب قاماتها وأنتم من كثرة الخضوع كادت أيديكم تصير قوائم! والنبات يطلب العلو وأنتم تظلمون الانخفاض! تظفونكم الأرض لتكونوا على ظهرها وأنتم حريصون على أن تنغرسوا في جوفها، فإن كانت بطن الأرض بغيثكم، قاضبروا قليلاً لتناموا فيها طويلاً.»

«يا قوم: ألهمكم الله الرشيد، متى تستقيم قاماتكم وترفع من الأرض إلى السماء أنظاركم، ونميل إلى تعالى نفوسكم؟ فيشعر أحدكم بوجوده في الوجود فيعرف

(١) في الأصل المفتح: يتحنون، وما ألتفت عن الطعة الأولى.

معنى الأنانية ليستقل بذاته في ذاته ، ويملك إرادته واختياره ويثق بنفسه وربه ، لا يتكل على أحد من خلق الله اتكال الناقص في الخلق على الكامل فيه ، أو اتكال الغاصب على مال العاقل أو اتكل على سعى العامل ، بل يرى أحدكم نفسه إنسانا كريما يعتمد على المبادلة والتعاضد فيسلف ثم يستوفى ، ويستدين على أن يفي ، بل ينظر في نفسه أنه هو الأمة وحده ، وما أجدر بأحدكم أن يعمل لدنياه بنفسه لنفسه ، فلا يتكل على غيره ، كما يعمل الإنسان ليعيد الله بشخصه لا ينيب عنه غيره . فإذا فعلتم ذلك أظهر الله بينكم ثمرة التضامن بلا اشتراط ، والتقاضى بلا محاشرة ، فتصيرون بنعمة الله إخوانا .

يا قوم: أبعده الله عنكم المصائب وبصركم بالعواقب ، إن كانت المظالم غلّت أيديكم ، وضيقت أنفاسكم ، حتى صغرت نفوسكم ، وهانت عليكم هذه الحياة . وأصبحت لا تساوي عندكم الجد والجهد ، وأنسيتم لا تبالون أتعيشون أم تموتون فهلا أخبرتموني لماذا تحكمون فيكم الظالمين حتى في الموت ؟ أليس لكم من الخيار أن تموتوا كما تشاؤون ، لا كما يشاء الظالمون ؟ هل سلب الاستبداد إرادتكم حتى في الموت ؟ كلا والله : إن أنا أحببت الموت أموت كما أحب ، لثيما أو كريما ، حقا أو شهيدا ، فإن كان الموت ولا بد ، فلماذا الجبانة ؟ وإن أردت الموت ، فليكن اليوم قبل الغد ، وليكن بيدي لا بيد عمرو . أليس :

وطعم الموت في أمر صغير كطعم الموت في أمر عظيم !!

يا قوم: أناشدكم الله ، ألا أقول حقا إذا قلت إنكم لا تحبون الموت ، بل تنفرون منه ، ولكنكم تجهلون الطريق فتسهبون من الموت إلى الموت ، ولو اهتمدتم إلى السبيل لعلمتم أن الهرب من الموت موت ، وطلب الموت حياة ، ولعرفتم أن الخوف من التعب تعب ، والإقدام على التعب راحة ، ولتظنتم إلى أن الحرية هي شجرة الخلد وسقيها قطرات من الدم الأحمر المسفوح ، والأسارة هي شجرة الرقوع ، وسقيها أنهر من الدم الأبيض أي الدموع ، ولو كبرت نفوسكم لتفاخرتم بتزيين صدوركم بورد الجروح لا بوسامات الظالمين .



يا قوم: وأعني منكم المسلمين ، أيها المسلمون : إنني نشأت وشبت وأنا أفكر

في شأننا الاجتماعي عسى أهدى تشخيص دأنا. فكنت اتقصي السبب بعد السبب. حتى إذا وقعت على ما أظنه عاماً، أقول لعمل هذا هو جرثومة الذاء، فأتعمق فيه تمحيصاً وأحلله تحليلاً، فيتكشف التحقيق عن أن ما اقام في الفكر هو سبب من جملة الأسباب، أو هو سبب فرعي لا أصلي، فأخيب وأعود إلى البحث والتنقيب. وطالما أمسيت وأصبحت أجهد الفكر في الاستقصاء، وكثيراً ما سمعت وسافرت لأستطلع آراء ذوي الآراء، عسى أعتدى إلى ما يشفى صدرى من الآلام بحث أتعبني به ربي. وأخيراً استقرت عليه سقينة فكرى هو:

إن جرثومة دأنا هي خروج ديننا عن كونه دين الفطرة والحكمة، دين النظام والنشاط، دين القرآن الصريح البيان، إلى صيغة أنا جعلناه دين الخيال والخيال. دين الخلل والتشوش، دين التبذع والتشديد، دين الإجهاد، وقد دب فيما هذا المرض منذ ألف عام، فلم يكن فيما، وأثر في كل شؤوننا، حتى بلغ فيما استحكام الخلل في الفكر والعمل أننا لا نرى في الخالق جل شأنه نظاماً فيما اتصف، نظاماً فيما قضى، نظاماً فيما أمر، ولا نطالب أنفسنا فضلاً عن أمرنا أو مأمورنا، بنظام وترتيب واطراد ومثابرة.

وهكذا أصبحنا واعتقادنا مشوش، وفكرنا مشوش، وسياستنا مشوشة، ومعيشتنا مشوشة. فأين منا، والحالة هذه، الحياة الفكرية، الحياة العملية، الحياة العائلية، الحياة الاجتماعية، الحياة السياسية؟

«يا قوم: قد ضيع دينكم ودنياكم ساستكم الأولون وعلماءكم المتأفقون، وإني أرشدكم إلى عمل أفرادى لا حرج فيه علماً ولا عملاً: أليس بين جنبي كل فرد منكم وجدان يميز الخير من الشر والمعروف من المنكر ولو تميزاً إجمالياً؟ أنا بلغكم قول معلم الخير نبيكم الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم: «تأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم»^(١)، وقوله: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، وإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(٢).

(١) رواه الترمذي وأبو داود والإمام أحمد

(٢) رواه مسلم

«وأنتم تعلمون إجماع أئمة مذاهبكم كلها على أن أنكر المنكرات، بعد الكفر، هو الظلم الذي فشا فيكم، ثم قتل النفس، ثم وثم... وقد أوضح العلماء أن تغيير المنكر بالقلب هو بغض المتلبس به بغضا في الله. بناء عليه فمن يعامل الظالم أو الفاسق غير مضطر، أو يجامله ولو بالسلام، يكون خيسر أضعف الإيمان، وما يعد الأضعف إلا العدم، أي فقد الإيمان، والعياذ بالله».

«ولا أظنكم تجهلون أن كلمة الشهادة، والصوم والصلاة، والحج والزكاة، كلها لا تغني شيئا مع فقد الإيمان، إنما يكون القيام حينئذ بهذه الشعائر، قياما بعبادات وتقليدات وهوسات تضع بها الأموال والأوقات».

«بناء عليه فالدين يكلفكم، إن كنتم مسلمين، والحكمة تلزمكم، إن كنتم عاقلين: أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر جهدكم، ولا أقل في هذا الباب من إبطانكم البغضاء للظالمين والفاسقين، وأظنكم إذا تأملتم قليلا ترون هذا الدواء السهل المقذور لكل إنسان منكم، يكفي لإنقاذكم مما تشكون. والقيام بهذا الواجب مستعين على كل فرد منكم بنفسه، ولو أهمله المسلمون كفاية، ولو أن أجدادكم الأولين قاموا به لما وصلتم إلى ما أنتم عليه من الهوان. فهذا دينكم، والدين ما يدين به الفرد لا ما يدين به الجمع، والدين يقين وعمل، لا علم وحفظ في الأذهان. ليس من قواعد دينكم فرض الكفاية، وهو أن يعمل المسلم ما عليه غير مستظر غيره؟».

«فأناشدكم الله يا مسلمين: ألا يغيركم دين لا تعملون به، وإن كان خير دين، ولا تغرنكم أنفسكم بأنكم أمة خير أو خير أمة، وأنتم أنتم المتواكلون المقنصرون على شعار: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ونعم الشعار شعار المؤمنين، ولكن آين هم؟ إنني لا أرى أمة تعرف حقا معنى: لا إله إلا الله، بل أرى أمة خبلتها عبادة الظالمين!».



«يا قوم: وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين، أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد، فقد كفي ما فعل ذلك على أيدي المثيرين، وأجلكم من ألا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون. فهذه أم

أوستريا^(١) وأمريكا. قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطنى دون الدينى، والرفاق الجنسى دون المذهبى، والارتباط السياسى دون الإدارى. فما باننا نحن لا نفتكر فى أن نتبع إحدى تلك الطرائق أو شبهها؟ فيقول عقلاؤنا لثيرى الشحاء من الأعجاء والأجانب^(٢)؛ دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا، نتفاهم بالفصحاء، ونتراحم بالإخاء، ونتواسى فى الضراء، وننساوى فى النراء. دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم فى الأخرى فقط. دعونا نجتمع على كلمات سواء، ألا وهى: فلنحى الأمة، فليحى الوطن، فلنحى طلقاء أعزاء».

«أدعوكم، وأخص منكم النجباء، للتبصر والتبصير فيما إليه المصير، أليس مطلق الغربى أخف استحقاقا لأخيه من الغربى؟ هذا الغربى قد أصبح ناديا لا دين له غير الكسب، فما نظاهره مع بعضنا بالإخاء الندينى إلا مخادعة وكذب، هؤلاء الفرنسيس يطار دون أهل الدين، ويعملون على أنهم يتناسونه، بناء عليه لا تكون دعواهم الدين فى الشرق، إلا كما يغرد الصياد وراء الأشباك؟!

لو كان للدين تأثير عند الغربى لما كانت البغضاء بين اللاتين والسكسون. بل بين الطليان والفرنسيس، ولما كانت بين الألمان والفرنسيس العربيين. الغربى أرقى من الشرقى علما وثروة ومتعة، فله على الشرقيين إذا واطنهم السيادة الطبيعية. أما الشرقيون فيما بينهم، فستاربون لا يتغابنون.

الغربى يعرف كيف يسوس، وكيف يتمتع، وكيف يأسر، وكيف يستأثر، فمتى رأى فيكم استعدادا واندفاعا لمجاراته أو سيقه، ضغط على عقولكم لتبجوا وراءه شوطا كبيرا كما يفعل الروس مع البولوتيين واليهود والتاتار، وكذلك شأن كل المستعمرين، الغربى مهما مكث فى الشرق لا يخرج عن أنه تاجر مستمتع، فياخذ فسائل الشرق ليغرسها فى يده التى لا يفتأ يفتخر برياضتها ويعلن إلى أربابها.

قد مضى على هؤلاء نديين فى الهند وجزائرهما، وعلى الروس فى قازان، مثل ما أقمنا فى الأندلس، ولكن ما خدموا العلم والعمران بعشر ما خدمتا هما. ودخل

(١) الإمبراطورية النمساوية القديمة التى انتهت بانتهاء الحرب العالمية الأولى

(٢) مراده بالأعجاء الأتراك العثمانيون، وبالأجانب: الإنجليز والفرنسيون. لأن الإشارة لثيرى اللغته

الطائفية بين الديوز والمارونيين فى سنة ١٨٦٠ م

الفرنساويون الجزائر منذ سبعين عاماً، ولم يسمحوا بعد لأهلها بحريّة واحدة
تقرأ. نرى الإنكليزي في بلادنا يفضل قديد بلاده، ويسمك بحماره، على طرق
حماره وممكنا، فيها، والحالة هذه نبصرون يا أولى الألباب؟



"وأنت أيها الشريق الفخيم، رعاك الله، ماذا دهاك؟ ماذا أقبلك عن مسراك،
اليسنت أرضك تلك الأرض ذات الجنان والأفنان، ومنبت العلم والعرفان؟
وسماؤك تلك السماء مصدر الأنوار، ومنهبط الحكمة والأديان؟ وهواؤك ذاك
النسيم العذب، لا العواصف والضباب؟ وماؤك ذاك العذب الغدق، لا الكدر ولا
الأجاج؟"

"رعاك الله يا شريق، ماذا أصابك فأخل نظامك، والدهر ذاك الدهر، ما غير
وضعك، ولا يدل شرعه فيك؟ ألم تزل منطلقك هي المعتدلة، ويتوك هم الفائقون
فطرة وعددا؟ أليس نظام الله فيك على عهده الأول؟ ورابطة الأديان في بيتك
محكمة قوية، مؤسسة على عبادة الصانع الوازع؟ أليست معرفة المنعم حقيقة راضية
أشرفت فيك شمسيتها، أيدت بها عز النفس، وأحكمت بها حب الوطن وحب
الجنس؟"

"رعاك الله يا شريق، ماذا عمرك وسكن مثك الخواك؟ ألم تزل أرضك واسعة
خصبة، ومعادذك وافية غنية، وحيواتك رايا متناسلا، وعمراتك قائما متواصلا،
ويتوك على ما ربيتهم أقرب للخير من الشر؟ أليس عندهم الحلم المسمى عند غيرهم
ضعفا في القلب، وعندهم الحياء المسمى بالحيانة، وعندهم الكرم المسمى
بالإتلاف، وعندهم القناعة المسماة بالعجز، وعندهم العفة المسماة بالسلافة،
وعندهم المجاملة المسماة بالذل؟ نعم، فما هم بالسالمين من الظلم، ولكن فيما
سنتهم، ولا من الخداج، ولكن لا يفتخرون به، ولا من الإضرار، ولكن مع الخوف
من الله؟"

"رعاك الله يا شريق، لا لرى من غير الدهر فيك ما يستوجب هذا الشقاء لبيتك،
ويستلزم ذلهم لبني أخيك، فلماذا قد أصبحت إذا انقطع عنك مدد أخيك

بعضنوعاته، يبقى أبنائك عراة حفاة في ظلام، بل يمنهم فقد الحديد بالرجوع إلى العصر النحاسي بل الحجري المصوف بعصر التعقيل؟»

وعاك الله يا شرق، بل رعى الله أهلك الغرب، العائل بنفسه والعائل فيك، وقاتل الله الاستبداد، بل لعن الله الاستبداد، المانع من الشرقي في الحياة، المنحط بالأم إلى أسفل الدرجات، إلا بعدا لينظلمين»



«وعاك الله يا غرب وحياك وبياك، قد عرفت لأخيك سابق فضله عليك، غوفيت وكفيت وأجست الوصاية وهديت، وقد اشتد ساعد بعض أولاد أخيك فهلا يتذب بعض شيوخ أحرارك لإعانة أخيك على هدم ذاك السور، سور الشؤم والشرور، ليخرجوا بإخوانهم إلى أرض الحيمة، أرض الاتبياء الهداة، فيشكرون فضلك، والدهر مكافأة؟»

يا غرب، لا يحفظ لك الدين غير الشرق إن دانت حياته بحريته، وفقد الدين يهددك بأخراب القريب، فماذا أعددت للمفوضين إذا صاروا جيشا جرارا؟ وماذا أعددت لديارك الحلي بالثورة الاجتماعية؟ هل تعد المواد المتفرقة، وقد جاوزت أنواعها الألف؟ أم تعد الغازات الخائفة، وقد سهلت استحضارها على الصبيان؟»



«يا قوم: وأريد بكم شباب اليوم رجال الغد، شباب الفكر ورجال الجند، أعيدكم من الخزي والخذلان بفرقة الأديان، وأعيدكم من الجهل، جهل أن الدينونة لله، وهو سبحانه ولي السرائر والضمائر، ولو شاء ربك لجهل الناس أمة واحدة» (هود: ١١٨).

«أناشدكم يا ناشئة الأوطان، أن تعدروا هؤلاء الواهة الخائرة قواهم إلا في ألسنتهم، المعطل عملهم إلا في الشيط، الذين اجتمع فيهم داء الاستبداد والتواكل فجعلاهما آلة تدار ولا تدير، وأسألکم عفوهم من العتاب والملام، لأنهم سرضي ميتلون، مشقون بالقيود، ملجئون بالحديد، يمتصون حياة خير منا فيها أنهم أبأكم!»

«قد علمتم، يا نجباء، من طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد جملاً كافية للتأمل والتدبر، فاعتبروا^(١) بها واسألوا الله العافية:

نحن ألفنا الأدب مع الكبير ولو داس رقابنا. ألفنا الثبات ثبات الأوتاد تحت المطارق، ألفنا الانقياد ولو إلى المهالك. ألفنا أن نعتبر التصاغر أدباً، والتدليل لطفاً، والتملك فصاحة، واللكنة رزاقاً، وترك الحقوق سماحة، وقبول الإهانة تواضعاً، والرضا بالظلم طاعة، ودعوى الاستحقاق غروراً، والبحث عن العموميات فضولاً، ومد النظر إلى الغد أملاً طويلاً، والإقدام تهوراً، والحمية حماقة، والشهامة شراسة، وحرية القول وقاحة، وحرية الفكر كفرًا، وحب الوطن جنوناً.

أما أنتم، حماكم الله من السوء، فترجو لكم أن تنشئوا على غير ذلك، أن تنشئوا على التمسك بأصول الدين، دون أوهام المتفنين، فتعرفوا قدر نفوسكم في هذه الحياة فتكرموها، وتعرفوا قدر أرواحكم وأنها خالدة تثاب وتجزى، وتتبعوا سنن النبيين فلا تخافون غير الصانع الوازع العظيم. وترجو لكم أن تتبوا قصور فخاركم على معالي الهمم ومكارم الشيم، لا على عظام نخرة. وأن تعلموا أنكم خلقتكم أحراراً لتموتوا أكراماً، فاجهدوا أن تحيا ذلكما اليومين حياة رضية، يتسنى فيها لكل منكم أن يكون سلطاناً مستقلاً في شؤونه، لا يحكمه غير الحق، ومديناً وفيما لقومه لا يظن عليهم عين أو عون، وولداً باراً لوطنه، لا ييخل عليه بجزء من فكره ووقته وماله، ومحبياً للإنسانية يعمل على أن خير الناس أنفعهم للناس، يعلم أن الحياة هي العمل، ووباء العمل القنوط، والسعادة هي الأمل، ووباء الأمل التردد، ويقفه أن القضاء والقدر هما عند الله ما يعلمه ويمضيه، وهما عند الناس السعى والعمل، ويوقن أن كل أثر على ظهر الأرض هو من عمل إخوانه البشر، وكل عمل عظيم قد ابتدأ به فرد ثم تعاوره غيره إلى أن كمل، فلا يتخيل الإنسان في نفسه عجزاً، ولا يتوقع إلا خيراً، وخير الخير للإنسان أن يعيش حراً مقادماً أو يموت».

«وكأنني بسائلكم يسألني تاريخ المغالِب بين الشرق والغرب، فأجيب: بأننا كنا أرقى من الغرب عندما فنظاماً فقوياً، فكان له أسباده! ثم جاء حين من الدهر لحق بنا الغرب فضارت مزاحمة الحياة بيننا سجالات: إن فنشاد شجاعة فاقنا عدداً، وإن فنشاد

(١) في الأصل المتفح: نأ، وما أبتناه عن الطبعة الأولى.

ثروة فاقنا باجتماع كلمته . ثم جاء الزمن الأخير ترفى فيه الغرب علما فنظما فتوة .
وانضم إلى ذلك :

أولا : قوة اجتماعه شعوبا كبيرة .

ثانيا : قوة البارود ، حيث أبطل الشجاعة وجعل العبرة للعدد .

ثالثا : قوة كشفه أسرار الكيمياء والميكانيك .

رابعا : قوة الفحم الذي أهده له الطبيعة .

خامسا : قوة النشاط بكسره قيود الاستبداد .

سادسا : قوة الأمن على عقد الشركات المالية الكبيرة .

فاجتمعت هذه القوات فيه وليس عند الشرق ما يقابلها غير الافتخار بالأسلاف ،
وذلك حجة عليه ، والغرور بالدين خلافا للدين ، فالمسلمون يقابلون تلك القوات
بما يقال عند اليأس وهو "حسبنا الله ونعم الوكيل" ، ويخالفون أمر القرآن لهم بأن
يعدوا ما استطاعوا من قوة ، لا ما استطاعوا من صلاة أو ضوم .

وكأنى بسائلكم يقول : هل بعد اجتماع هذه القوات في الغرب واستيلائه على
أكثر الشرق من سبيل لنجاة البقية ؟ فأجيب قاطعا غير متردد :

إن الأمر مقدور ولعله ميسور . ورأس الحكمة فيه كسر قيود الاستبداد ، وأن
يكتب الناشئون على جباههم عشر كلمات وهي :

١ - ديني ما أظهر ولا أخفى .

٢ - أكون حيث يكون الحق ولا أبالي .

٣ - أنا حر وساموت حرا .

٤ - أنا مستقل لا أتكل على غير نفسي وعقلي .

٥ - أنا إنسان الحد والاستقبال لا إنسان الماضي والحكايات .

٦ - نفسي ومنفعتي قبل كل شيء .

٧ - الحياة كلها تعب لمزيد.

٨ - الوقت غال عزيز.

٩ - الشرف في العلم فقط.

١٠ - أخاف الله لا سواه.



"وأنت أيها الوطن المحبوب : أنت العزيز على التقوس « المقدس في القلوب .
إليك نحن الأشباح وعليك نحن الأرواح . . أيها الوطن الباكي ضعافه : عليك تبكي
العيون وفيك يحلو المنون . إلى متى يعبث خلالك اللغام الطغام ؟ يظلمون بنيك
ويذبلون ذويك . يطاردون أنجلك الأتجباب ويمسكون على المساكين الطرق
والآبواب ، يخربون العمران ويقفرون الديار ؟

أيها الوطن العزيز : هل ضاقت رحابك عن أولادك . أم ضاقت أحضانك عن
أفلاكك ؟ . . كلاء ، إنما فقدت الآباء ، فقدت الحماة ، فقدت الأحرار ! أيها الوطن
الملتهب فؤاده : أما رويت من سقيا الدموع والدماء ؟ ولكنها دموع بناتك الشاكيات
ودماء أبنائك الأبرياء ، لا دموع النادمين ولا دماء الظالمين . ألا فاشرب هنينا ولا
تأسف على البلاء الخاملين ، ولا تحزن ، فما هم كرائم وكرام . لسن هم كرائم باكيات
محميات ، وليسوا هم كراما أعزة شهداء ، إنما هم ، غفر الله لهم ، من علمت ، قل
فيهم الحر الغيور ، قل فيهم من يقول أنا لا أخاف الظالمين .

أيها الوطن الخنون : كون الله عناصر أجسامنا منك ، وجعل الأمهات حواشي .
ورزقنا الغذاء منك ، وجعل المرضعات مجهزة . نعم ، خلقتنا الله منك ، فحق لك
أن تحب أجزاءك وأن تحن على أفلاكك . كما يحق لك في شرع الطبيعة ألا تحب
الاجنبي الذي يأبى طبيعته حبك ، الذي يؤذيك ولا يزيالك ، ويؤاخم بنيك عليك
ويشاركهم فيك ، وينقل إلى أرضه ما في جوفك من تقيس العناصر وتكونز المعادن
فيفترق ليغنى وطنه ، ولا يوم عليه بل يارك الله فيه ! » .

يا قوم : جعلكم الله خيرة اليوم وعدة الغد ، هذا خطابي إليكم فيما هي الترفي

وما هو الانحطاط، فإن وعيتم ولو شائرا، فيما بشرى، والسلام عليكم، وإلا
فيا^(١) ضياع الأنفس، وعلى الرفاه السلام.



الاستبداد الذي يبلغ في الانحطاط بالأمة إلى غاية أن تموت وتنبوت هو معها،
كثير الشواهد في قديم الزمان وحديثه. أما بلوغ الترقى بالأمم إلى المرتبة القصوى
السامية التي تليق بالإنسانية فهذا لم يسمح الزمان حتى الآن بأمة تصلح مثالا له،
لأنه إلى الآن لم توجد أمة حكمت نفسها برأيها العام حكما لا يشوبه نوع من
الاستبداد ولو باسم الوفاق والاحترام، أو بنوع من الإغفال ولو يبذر الشقاق الديني
أو الجتسي بين الناس.

فكان الحكمة الإلهية، لم تزل ترى البشر غير متأهلين لنوال سعادة الأخوة
العمومية بالتحايث بين الأفراد. والقناعة بالمساواة الحقوقية بين الطبقات. نعم،
وجد للترقى القريب من الكمال بعض أمثال قليلة في القرون الغابرة، كالجمهورية
الثانية للرومان، وعهد الخلفاء الراشدين، وكالأزمة المنقطعة في عهد بعض الملوك
المتقدمين لا الفاتحين مثل أنوشروان وعبد الملك الأموي^(٢) ونور الدين الشهيد
وبطرس الكبير^(٣). وكبعض الجمهوريات الصغيرة والممالك الموقفة لأحكام التقيد
الموجودة في هذا الزمان. وإلى أقصر على وصف منتهى الترقى الذي وصلت إليه
تلك الأمم وصفا إجماليا، وأترك للمطالع أن يوازن بينها ويقيس عليها درجات
سائر الأمم.

وربما يستريب في ذلك المطالع المولود في أرض الاستبداد، الذي لم يدرس
أحوال الأمم في الوجود، ولا عتب عليه فياته كالمولود أعمى لا يدرك للمناظر
البهية معنى.

قد بلغ الترقى في الاستقلال الشخصي في ظلال الحكومات العادلة، لأن يعيش
الإنسان المعيشة التي تشبه في بعض الوجوه ما وعدته الأديان لأهل السعادة في

(١) في الأصل المتوخ: فيما. - ولا وجود لهذه العبارة في الطبعة الأولى.

(٢) عبد الملك بن مروان، أنقذ الدولة الأموية من التفكك، وحكمها من سنة ٦٨٥ حتى سنة ٧٠٥م.

(٣) القيصر الروسي الذي قاد حركة التجديد في بلاده، ولد سنة ١٦٧٢ وتوفي سنة ١٧٢٥م.

الجنان . حتى إن كل فرد يعيش كأنه خالد بقومه ووطنه ، وكأنه أمين على كل مطلب ، فلا هو يكلف الحكومة شططا ولا هي تهمله استحقارا :

١ - أمين على السلامة في جسمه وحياته بحراسة الحكومة التي لا تغفل عن محافظته بكل قوتها في حضره وسفره بدون أن يشعر بثقل قيامها عليه . فهي تحيط به إحاطة الهواء ، لا إحاطة السور يلطمه كيفما التفت أو سار .

٢ - أمين على الملمات الجسمية والفكرية باعتناء الحكومة في الشؤون العامة ، المتعلقة بالثرويات الجسمية والنظرية والعقلية حتى يرى أن الطرقات المسهلة والتزيينات البلدية ، والمتنزهات ، والمنتديات ، والمدارس ، والمجامع وتحوز ذلك ، قد وجدت كلها لأجل ملذاته ، ويعتبر مشاركة الناس له فيها لأجل إحسانه ، فهو بهذا النظر والاعتبار لا ينقص عن أغنى الناس سعادة .

٣ - أمين على الحرية ، كأنه تخلق وحده على سطح هذه الأرض ، فلا يعارضه معارض فيما يخص شخصه من دين وفكر وعمل وأمل .

٤ - أمين على التقود ، كأنه سلطان عزيز فلا مانع له ولا معاكس في تنفيذ مقاصده النافعة في الأمة التي هو منها .

٥ - أمين على المزية ، كأنه في أمة يساوي جميع أفرادها منزلة وشرفا وقوة ، فلا يفضل هو على أحد ولا يفضل أحد عليه ، إلا بمزية سلطان الفضيلة فقط .

٦ - أمين على العدل ، كأنه هو القابض على ميزان الحقوق فلا يخاف تظفيها ، وهو المضمن فلا يجذر بخسها . وهو المطمئن على أنه إذا استحق أن يكون ملكا صار ملكا ، وإذا جنى جناية نال جزاءه لا محالة .

٧ - أمين على المال والملك ، كأن بما أحرزه بوجهه المشروع قليلا كان أو كثيرا ، قد خلقه الله لأجله فلا يخاف عليه ، كما أنه تطلع عنه إن نظر إلى مال غيره :

٨ - أمين على الشرف بضمان القانون ، بتصرة الأمة ، ببذل الدم ، فلا يرى تحقيرا إلا لدى وجدانه ، ولا يعرف طعما لمرارة الذل والهوان .

أما الأسير ، ولا أحزن المطالع بوصف حالته ، فأكتفى بالقول : إنه لا يملك ولا

نفسه ، وغير أمين حتى على عظامه في رسمه ، إذا وقع نظره على المستبد أو أحد من جماعته ، على كثرتهم ، يتعوذ بالله ، وإذا من قرب إحدى دوائر حكومته أسرع وهو يكرر قوله : « حمايتك يارب ، إن هذه الدار بش الدار ، هي كالمجزرة ، كل من فيها إما ذابح وإما مذبح . إن هذه الدار كالكنيف لا يدخله إلا المضطر » .



وقد يبلغ الترقى في الاستقلال الشخصى مع التركيب بالعائلة والعشيرة ، أن يعيش الإنسان معتبرا نفسه من وجه غنها عن العالمين ، وعن وجه عضوا حقيقيا من جسم حى هو العائلة ثم الأمة ، ثم البشر .

وينظر إلى انقسام البشر إلى أم ، ثم إلى عائلات ، ثم إلى أفراد ، هو من قبيل انقسام الممالك إلى مدن وهي إلى بيوت وهي إلى مرافق ، وكما أنه لا بد لكل مرفق من وظيفة معينة يصلح لها ، وإلا كان بناؤه عبثا يستحق الهدم ، كذلك أفراد الإنسان لا بد أن يعد كل منهم نفسه لوظيفة في قيام حياة عائلته أولا ، ثم حياة قومه ثانيا .

ولهذا يكون العضو الذى لا يصلح لوظيفة ، أو لا يقوم بما يصلح له ، حقيرا مهانا . وكل من يريد أن يعيش كلاً على غيره ، لا عن عجز طبيعى ، يستحق الموت لا الشفقة ، لأنه كالدرن في الجسم أو كالزائدة في الظفر يستحقان الإخراج والقطع . ولهذا المعنى حرمت الشرائع السماوية الملامى التى ليس فيها ترويض ، والسكّر المعطل عن العمل عقلا وجسما ، والمقاومة والربا لأنهما ليسا من نوع العمل والتبادل فيه . وقد فضل الله الكناس على الحجام وصانع الخبز على ناظم الشعر لأن صنعتهما أنفع للمجتمع .

وقد يبلغ ترقى التركيب فى الأم إلى درجة أن يضير كل فرد من الأمة مالكا لنفسه تماما ، ومملوكا لقومه تماما . فالأمة التى يكون كل فرد منها مستعدا لافتدائها بروحه وبماله ، تصير تلك الأمة بحجة هذا الاستعداد فى الأفراد . غنية عن أرواحهم وأموالهم .



الترقى فى القوة بالعلم والمال يتميز على باقى أنواع الترقيات السالفة البيان غير الرأس على باقى أعضاء الجسم ، فكما أن الرأس يحرزه مركزية العقل ومركزية

أكثر الخواص، تميز على باقي الأعضاء واستخدامها في حاجاتها، فكذلك الحكومات المنتظمة يترقى أفرادها ومجسوعها في العلم والثروة، فيكون لهم سلطان طبيعي على الأفراد أو الأمم التي انحط بها الاستبداد المشؤوم إلى حضيض الجهل والفقر.



بقي علينا بحث الترقى في الكمالات بالخصال والأثرة، وبحث الترقى الذي يتعلق بالروح، أي بما وراء هذه الحياة، ويرقى إليه الإنسان على سلم الرحمة والحسنة، فهذه أبحاث طويلة الذيل ومتابعها حكميات الكتب السماوية، ومدونات الأخلاق، وتراجم مشاهير الأمم.

وأكتفى بالقول في هذا النوع: إنه يبلغ بالإنسان مرتبة ألا يرى حياته أهمية إلا بعد درجات، فيهمه أولاً: حياة أمته، ثم: امتلاك حريته، ثم: أمانته على شرفه. ثم: محافظته على عائلته، ثم: وقايته حياته، ثم: ماله، ثم وثم، وقد تشمل إحساساته عالم الإنسانية كله، كأن قومه البشر لا قبيلته، ووطنه الأرض لا بلده، ومسكنه حيث يجد راحته، لا يتقيد بجدران بيت مخصوص يستتر فيه ويفتخر به كما هو شأن الأسراء.

وقد يترفع الإنسان عن الإمارة لما فيها من معنى الكبر، وعن التجارة لما فيها من التمزق والتبذل، فيرى الشرف في المعرات، ثم المطرقة، ثم القلم، ويرى اللذة في التجديد والاختراع، لا في المحافظة على العتيق، كأن له وظيفة في ترقى مجموع البشر.



وخلاصة القول: إن الأمم التي يستعدها جدها لتبديد استبدادها، تنال من الشرف الحسى والمعنوى ما لا يخطر على فكر أسراء الاستبداد. فهذه بلجيكا أبطلت التكاليف الأميرية برمتها، مكتفية في نفقاتها بنماء فوائد بنك الحكومة. وهذه سويسرة يصادفها كثير الأيوجد في سجونها محبوس واحد، وهذه أمريكا أثرت حتى كادت تخرج الفضة من مقام النقد إلى مقام المتاع. وهذه اليابان أصبحت تستنزف قناطر الذهب من أوروبا وأمريكا ضمن امتيازات اختراعاتها وطبع تراجم مؤلفاتها.

وقد تنال أيضا تلك الأمم حفاظا من المذلات الحقيقية، التي لا تختلج على فكر الأسراء، كلذة العلم وتعليمه، ولذة المجد والحماية، ولذة الإثراء واليدل، ولذة إحراز الاحترام في القلوب، ولذة نفوذ الرأي الصائب، ولذة الحب الطاهر، إلى غير هذه المذلات الروحية. وأما الأسراء والجهلاء فمذلاتهم مقصورة على مشاركة الوحوش الضارية في المظاعم والمشارب واستفراغ الشهوة، كان أجسامهم ظروف تملا وتفرغ، أو هي دمايل تولد الصيد وتدفعه.

وأنفع ما بلغه الترقى في البشر، هو إحكامهم أصول الحكومات المنتظمة بنائهم سدا متينا في وجه الاستبداد، والاستبداد حرثومة كل فساد، ويجعلهم ألقوة ولا نفوذ فوق قوة الشرع، والشرع هو حبل الله المتين. ويجعلهم قوة التشريع في يد الأمة، والأمة لا تجتمع على ضلال، ويجعلهم المحاكم تحاكم السلطان والضعفك على السواء، فتحاكي في عدلتها المحكمة الكبرى الإلهية، ويجعلهم العمال لا سبل لهم على تعدى حدود وظائفهم، كأنهم ملائكة لا يعصون أمرا، ويجعلهم الأمة بقطة ساهرة على مراقبة سير حكومتها، لا تغفل طريقة عمل، كما أن الله عز وجل لا يغفل عما يفعل الظالمون.

هذا مبلغ الترقى الذي وصلت إليه الأمم منذ عرف التاريخ، على أنه لم يقم دليل إلى الآن على ترقى البشر في السعادة الحوية عما كانوا عليه في العصور الخالية حتى الحجرية، حتى منذ كانوا عراة يسرحون أسرابا، والآثار المشهودة لا تدل على أكثر من ترقى العلم والعمران وهما أثنان كنا يصلحان للإسعاد، يصلحان للإشقاء، وترقيهما هو من سنة الكون التي أرادها الله تعالى لهذه الأرض وبنيتها، ووصف لنا ما سيبغ إليه ترقى زيتها وتقدير أهلها بقوله عز شأنه: «حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وطين أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كان لم تن بالأمس» (يونس: ٢٤). وهذا يدل على أن الدنيا وبنيتها لم يزالا في مستقبل الترقى، ولا يعارض هذا أن عا مضى من عمرهما هو أكثر مما بقى حسبما أخبرت به الكتب السماوية، لأن العمر شيء، والترقى شيء آخر.



الاستبداد والتخلص منه

ليس لنا مدرسة أعظم من التاريخ الطبيعي ولا برهان أقوى من الاستقراء، فمن تتبعهما يرى أن الإنسان عاش دهرًا طويلًا في حالة طبيعية تسمى «دور الافتراس»، فكان يتجول حول المياه أسرابًا، تجميعه حاجة الحضانة صغيرًا، وقصد الاستئناس كبيرًا، ويعتمد في رزقه على النبات الطبيعي وافتراس ضعاف الحيوان في البر والبحر، وتسوسه الإرادة فقط، ويقوده من بيئته أقوى إلى حيث يكثر الرزق.

ثم ترقى كثير من الإنسان إلى الحالة البدوية التي تسمى «دور الاقتناء»: فكان عشائر وقبائل، يعتمد في رزقه على ادخار الفرائس إلى حين الحاجة، فصارت تجميعه حاجة التحفظ على المال والأنعام، وحماية المستودعات والمراعي والمياه من المزارعين.

ثم انتقل، ولا يقال ترقى، قسم كبير من الإنسان إلى المعيشة الحضرية: فسكن القرى، يستتب الأرض الخصبة في معاشه، فأخصب ولكن في الشقاء، ولعله استحق ذلك بفعله، لأنه تعدى قانون الخالق، فإنه خلقه حراً جوالاً يسير في الأرض يظفر آلاء الله، فسكن، وسكن إلى الجهل وإلى الذل، وخلق الله الأرض مباحة، فاستأثر بها، فسلط الله عليه من يغضبها منه ويأسره. وهذا القسم يعيش بلا جامعة، تحكمه أهواء أهل المدن. وقانونه: أن يكون ظالماً أو مظلوماً.

ثم ترقى قسم من الإنسان إلى التصرف، إما في المادة وهم الصناع، وإما في النظريات وهم أهل المعارف والعلوم. وهؤلاء المتصرفون هم سكان المدن الذين هم وإن سجنوا أجسامهم بين الجدران، لكنهم أطلقوا عقولهم في الأكوان، وهم قد

توسعوا في الرزق كما توسعوا في الحاجات، ولكن أكثرهم لم يهتدوا حتى الآن للطريق المثلى في سياسة الجمعيات الكبيرة. وهذا هو سبب تنوع أشكال الحكومات وعدم استقرار أمة على شكل مرض عام. إنما كل الأمم في تقلبات سياسية على سبيل التجريب، وبحسب تغلب أحزاب الاجتهاد أو رجال الاستبداد.

وتقرير شكل الحكومة هو أعظم وأقدم مشكلة في البشر، وهو المعترك الأكبر لأفكار الباحثين، والميدان الذي قل في البشر من لا يجول فيه على فيل من الفكر، أو على جمل من الجهل، أو على فرس من الفراسة، أو على حمار من الحمق. حتى جاء الزمن الأخير فجال فيه إنسان الغرب جولة المغوار، المحتطى في التدقيق مراكب البخار، فقرر بعض قواعد أساسية في هذا الباب تضافر عليها العقل والتجريب، وحصص فيها الحق اليقين، فصارت تعد من المقررات الإجماعية عند الأمم المترقية، ولا يعارض ذلك كون هذه الأمم لم تزل أيضاً منقسمة إلى أحزاب سياسية يختلفون شعباً، لأن اختلافهم هو في وجوه تطبيق أصول تلك القواعد وفروعها على أحوالهم الخصوصية.

وهذه القواعد التي قد صارت قضايا يديه في الغرب، لم تزل مجهولة، أو غريبة، أو منغورة منها في الشرق، لأنها عند الأكثرين منهم لم تطرق سمعهم، وعند البعض لم تزل التفاتتهم وتدقيقهم، وعند آخرين لم تحز قبولا، لأنهم ذوو غرض، أو مسروقة قلوبهم، أو في قلوبهم مرض.

وإني أطرح لتدقيق المطالعين رءوس مسائل بعض المباحث التي تتعلق بها الحياة السياسية. وقبل ذلك أذكرهم بأنه قد سبق في تعريف الاستبداد بأنه: «هو الحكومة التي لا يوجد بينها وبين الأمة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون نافذ الحكم». كما استألفت نظرهم إلى أنه لا يوثق بوعد من يتولى السلطة أيا كان. ولا بعهده ويمينه على مراعاة الدين، والتقوى، والحق، والشرف، والعدالة، ومقتضيات المصلحة العامة، وأسأل ذلك من القضايا الكلية المهمة التي تدور على لسان كل بر وفاجر، وما هي في الحقيقة إلا كلام مبهم فارغ، لأن المجرم لا يعلم تأويلا، ولأن من طبيعة القوة الاعتساف، ولأن القوة لا تقابل إلا بالقوة.

ثم فلنرجع للمباحث التي أريد طرحها لتدقيق المطالعين وهي:

١- مبحث: ما هي الأمة؟ أى الشعب؟

هل هي ركام مخلوقات نامية؟ أو جمعية عبيد لمالك متغلب، وظيفتهم الطاعة والانقياد ولو كرها؟ أم هي جمع بينهم روابط دين أو جنس أو لغة، ووطن، وحقوق مشتركة، وجامعة سياسية اختيارية، لكل فرد حق إشهار رأيه فيها توفيقا للقاعدة الإسلامية التى هي أسمى وأبلغ قاعدة سياسية وهى: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»؟!

٢- مبحث: ما هي الحكومة؟

هل هي سلطة امتلاك فرد لجمع، يتصرف فى رقابهم، ويتمتع بأعمالهم، ويفعل بإرادته ما يشاء؟ أم هي وكالة تقام بإرادة الأمة لأجل إدارة شؤونها المشتركة العنومية؟!

٣- مبحث: ما هي الحقوق العمومية؟

هل هي حقوق آحاد الملوك، ولكنها تضاف للأمم مجازا؟ أم بالعكس هي حقوق جميع الأمم، وتضاف للملوك مجازا؟ ولهم عليها ولاية الأمانة والنظارة على مثل الأراضي والمعادن، والأنهر والسواحل، والقلاع والمعابد، والأساطيل والمعدات، وولاية الحدود، والحراسة على مثل الأمن العام، والعدل والنظام، وحفظ وصيانة الدين والآداب، والقوانين والمعاهدات، والأخبار، إلى غير ذلك مما يحق لكل فرد من الأمة أن يتمتع به وأن يضمن عليه؟!

٤- مبحث: التساوى فى الحقوق

هل للحكومة التصرف فى الحقوق العامة المادية والأدبية كما تشاء، بذلا وحرمانا؟ أم تكون الحقوق محترمة للجميع على التساوى والشيوخ؟ وتكون المعام والمغارم العمومية موزعة على الفصائل والبلدان والصنوف والأديان بنسبة عادلة، ويكون الأفراد متساوين فى حق الاستئصال؟!

٥. مبحث: الحقوق الشخصية:

هل الحكومة تملك السيطرة على الأعمال والأفكار؟ أم أفراد الأمة أحرار في الفكر مطلقا، وفي الفعل ما لم يخالف القانون الاجتماعي، لأنهم أدرى بمنافعهم الشخصية، والحكومة لا تتدخل إلا في الشؤون العمومية؟

٦. مبحث: نوعية الحكومة:

هل الأصلح هي الملكية المطلقة من كل زمام؟ أم الملكية المقيدة؟ وما هي القيود؟ أم الرئاسة الانتخابية الدائمة مع الحياة؟ أم المؤقتة إلى أجل؟ وهل تُنال الحاكمية بالوراثة؟ أم العهد؟ أم الغلبة؟ وهل يكون ذلك كما تشاء المصادفة؟ أم مع وجود شرائط الكفاءة؟ وما هي تلك الشرائط؟ وكيف يصير تحقيق وجودها؟ وكيف يراقب استمرارها؟ وكيف تستمر المراقبة عليها؟

٧. مبحث: ما هي وظائف الحكومة؟

هل هي إدارة شؤون الأمة حسب الرأي والاجتهاد؟ أم تكون مقيدة بقانون موافق لرغائب الأمة وإن خالف الأصلح؟ وإذا اختلفت الحكومة مع الأمة في اعتبار الصالح والمضر فهل على الحكومة أن تعتزل الوظيفة؟

٨. مبحث: حقوق الحاكمية:

هل للحكومة أن تخصص بنفسها لنفسها ما تشاء من مراتب العظمة، ورواتب المال؟ وتحابي من تريد بما تشاء من حقوق الأمة وأموالها؟ أم يكون التصرف في ذلك كله، إعطاء وتحديدًا ومتعًا، متوطا بالأمة؟

٩. مبحث: طاعة الأمة للحكومة:

هل الإرادة للأمة، وعلى الحكومة العمل؟ أم الإرادة للحكومة، وعلى الأمة

الطاعة؟ وهل للحكومة تكليف الأمة طاعة عمياء بلا فهم ولا اقتناع؟ أم عليها الاعتناء بوسائل التفهيم والإذعان لتتأني الطاعة بإخلاص وأمانة؟!

١٠- مبحث: توزيع التكاليفات:

هل يكون وضع الضرائب مفوضا لرأى الحكومة؟ أم الأمة تقر النفقات اللازمة فتعين موارد المال، وترتب طرائق جبايته وحفظه؟!

١١- مبحث: إعداد المتعة:

هل يكون إعداد القوة بالتجنيد والتسليح استعدادا للدفاع مفوضا لإرادة الحكومة، إهمالا، أو إقلالا، أو إكثارا أو استعمالا على قهر الأمة؟ أم يلزم أن يكون ذلك برأى الأمة وتحت أمرها؟ بحيث تكون القوة متفذة رغبة الأمة لا رغبة الحكومة؟!

١٢- مبحث: المراقبة على الحكومة:

هل تكون الحكومة لا تسأل عما تفعل؟ أم يكون للأمة حق السيطرة عليها، لأن الشأن شأنها، فلها أن تيب عنها وكلاء لهم حق الاطلاع على كل شيء، وتوجيه المسؤولية على أي مكان، ويكون أهم وظائف النواب حفظ الحقوق الأساسية المقررة للأمة على الحكومة؟!

١٣- مبحث: حفظ الأمن العام:

هل يكون الشخص مكلفا بحراسة نفسه ومتعلقاته؟ أم تكون الحكومة مكلفة بحراسته مقيما ومسافرا، حتى من بعض طوارئ الطبيعة بالخيولة لا بالمجازاة والتعويض؟!

١٤- مبحث: حفظ السلطة في القانون:

هل يكون للحكومة إيقاع عمل إكراهي على الأفراد برأيها، أي بدون الوسائط القانونية؟ أم تكون السلطة منحصرة في القانون، إلا في ظروف مخصوصة وموقفة؟!

١٥- مبحث: تأمين العدالة القضائية:

هل يكون العدل ما تراه الحكومة؟ أم يراه القضاة المصون وجدانهم من كل مؤثر غير الشرع والحق، ومن كل ضغط حتى ضغط الرأي العام؟!

١٦- مبحث: حفظ الدين والآداب:

هل يكون للحكومة، ولو القضائية، سلطة وسيطرة على العقائد والضمائر؟ أم تقتصر وظيفتها في حفظ الجامعات الكبرى كالدين، والجنسية، واللغة، والعادات، والآداب العمومية، على استعمال الحكمة ما أغنت عن الزواجر، ولا تتدخل الحكومة في أمر الدين ما لم تنتهك حرمة؟ وهل السياسة الإسلامية سياسة دينية؟ أم كان ذلك في مبدأ ظهور الإسلام، كالإدارة العرفية عقب الفتح؟!

١٧- مبحث: تعيين الأعمال بقوانين:

هل يكون في الحكومة، من الخاتم إلى البوليس، من يطلق له عبان التصرف برأيه وخبرته؟ أم يلزم تعيين الوظائف، كلياتها وجزئياتها، بقوانين صريحة واضحة، لا تسوغ مخالفتها ولو لمصلحة مهمة، إلا في حالات الخطر الكبير؟!

١٨- مبحث: كيف توضع القوانين:

هل يكون وضعها منوطاً برأي الحاكم الأكبر؟ أو رأي جماعة ينتخبهم لذلك؟ أم يضع القوانين جمع منتخب من قبل الكافة ليكونوا عارفين حتماً بحاجات قومهم

وما يلائم طبائعهم ومواقفهم وصوالجهم؟ ويكون حكمه عاما؟ أو مختلفا على حسب تخالف العناصر والطبائع وتغير الموجبات والأزمان؟!

١٩. مبحث: ما هو القانون وقوته:

هل القانون هو أحكام يحتج بها القوي على الضعيف؟ أم هو أحكام منتزعة من روابط الناس بعضهم ببعض، وملاحظ فيها طبائع أكثرية الأفراد، ومن نصوص خالية من الإبهام والتعبد، وحكمها شامل كل الطبقات، ولها سلطان نافذ قاهر مصنوع من مؤثرات الأغراض، والشفاعة، والشفقة، وبذلك يكون القانون هو القانون الطبيعي للأمم فيكون محترما عند الكافة، مضمون الحماية من قبل كل أفراد الأمة؟!

٢٠. مبحث: توزيع الأعمال والوظائف:

هل يكون الخطأ في ذلك مخصوصا بأقارب الحاكم وعشيرته ومقربيه؟ أم توزع كتوزيع الحقوق العامة على القبائل والفضائل كافة، ولو متناوبة، مع ملاحظات الأهمية والعدد، بحيث يكون رجال الحكومة نموذجاً من الأمة، أو هم الأمة مصغرة، وعلى الحكومة إيجاد الكفاءة والإعداد ولو بالتعليم الإجباري؟!

٢١. مبحث: التصريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم:

هل يجمع بين سلطتين أو ثلاث في شخص واحد؟ أم تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بين يقوم بها يائشان؟ ولا إثنان إلا بالاختصاص، وفي الاختصاص، كما جاء في الحكمة القرآنية: ﴿ما جعل الله لرجل من قبيلين في جوفه﴾ (الأحزاب: ٤)، ولذلك لا يجوز الجمع منعاً لاستفحال السلطة.

٢٢. مبحث: الترقى فى العلوم والمعارف:

هل يترك للحكومة صلاحية الضغط على العقول كي لا يقوى نفوذ الأمة عليها؟
أم تحمل على توسيع المعارف بجعل التعليم الابتدائى عموميا، بالتشويق أو
الإجبار، ويجعل الكمالى منه سهلا للمتناول، وجعل التعليم والتعلم حرا
مطلقا؟!

٢٣. مبحث: التوسيع فى الزراعة والصنائع والتجارة:

هل يترك ذلك للنشاط المفقود فى الأمة؟ أم تلزم الحكومة بالاجتهاد فى تسهيل
عضاهة الأم السائرة، لا سيما المراحة والمجاورة، كيلا تهلك الأمة بالحاجة لغيرها
أو تضعف بالفقر؟!

٢٤. مبحث: السعى فى العمران:

هل يترك ذلك لإهمال الحكومة أو لانهماكها فيه إسرافا وتبذيرا؟ أم تحمل على
اتباع الاعتدال المناسب مع الثروة العمومية؟!

٢٥. مبحث: السعى فى رفع الاستبداد:

هل يتنظر ذلك من الحكومة ذاتها؟ أم نوال الحرية ورفع الاستبداد زفعا لا يترك
سجلا لعودته من وظيفة عقلاء الأمة وسراتها؟!



هذه خمسة وعشرون مبحثا، كل منها يحتاج إلى تدقيق عميق، وتفصيل
طويل، وتطبيق على الأحوال والمقتضيات الخصوصية. وقد ذكرت هذه المباحث
تذكرا للكتاب ذوى الأبواب وتنشيطا للنجباء على الخوض فيها بترتيب، اتباعا
لحكمة إتيان البيوت من أبوابها. وإنى أقنصر على بعض الكلام فيما يتعلق بالمبحث
الآخر منها فقط، أعنى مبحث السعى فى رفع الاستبداد فأقول:

١ - الأمة التي لا يشعر كلها أو أكثرها بالآلام الاستبداد لا تستحق الحرية.

٢ - الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدرج.

٣ - يجب قبل مقاومة الاستبداد تهينة ماذا يستبدل به الاستبداد.

هذه قواعد رفع الاستبداد وهي قواعد تبعاً آمال الأسراء، وتسر المستبدين، لأن ظاهرها يؤمنهم على استبدادهم. ولهذا أذكر بما قد أندرهم به أنقيارى المشهور^(١) حيث قال: «لا يفرح المستبد بعظيم قوته وفريد احتياظه فكم من جبار عنيد جندله مفلولم صغير»، وإنى أقول: كم من جبار قهار أخذه الله أخذ عزيز منتقم.

بنى قاعدة كون الأمة التي لا يشعر أكثرها بالآلام الاستبداد لا تستحق الحرية هو:

أن الأمة التي ضربت عليها الذلة والمسكنة، وتوالت على ذلك القرون والبطون. تصير تلك الأمة سافلة الطباع، جسمها سبق تفصيله فى الأبحاث السالفة. حتى إنها تصير كالبهائم، أو دون البهائم، لا تنال قط عن الحرية، ولا تلتبس العدالة، ولا تعرف للاستقلال قيمة، أو للنظام فزية، ولا ترى لها فى الحياة وظيفة غير التابعة للغالب عليها، أحسن أو أساء على حد سواء، وقد تنقم على المستبد نادراً، ولكن طلباً للانتقام من شخصه، لا طلباً للخلاص من الاستبداد، فلا تستفيد شيئاً، إنما تستبدل مرضاً بمرض كمنغص بصداغ.

وقد تقاوم المستبد بسوق مستبد آخر سوسم فيه أنه أقوى شوكة من المسيب الأول، فإذا نجحت لا يغسل هذا السائق يديه إلا بماء الاستبداد، فلا تستفيد أيضاً شيئاً، إنما تستبدل مرضاً جديداً^(٢) بمرض مزمن، وربما تنال الحرية عفواً فكذلك لا تستفيد منها شيئاً لأنك لا تعرف محبتها فلا تهتم بحفظها. فلا تلبث الحرية أن تنقلب إلى قوضى، وهى إلى استبداد، مشوش أشد وطأة. كالمرض إذا انعكس ولهذا قرر الحكماء أن الحرية التى تنفع الأمة هى التى تحصل عليها بعد الاستعداد لقبولها، وأما التى تحصل على أثر ثورة جمعاء فقلنا نغيد شيئاً، لأن الثورة غالباً

(١) المصلح والأدب الإيطالى أليغزى فينترو (Alderi Vintoni) (١٧٤٩ - ١٨٠٣ م) وفى مقدمة

«ظائع الاستبداد» إشارة إلى أنه مضطرب من مصادر التباس الكراتين فى هذا الموضوع.

(٢) فى الأصل النجج: جد، وما أشتاء عن الطلعة الأولى.

نكتفى بقطع شجرة الاستبداد ولا تقتلع جذورها، فلا تلبث أن نبت ونمو ونعود أقوى مما كانت أولا.

فإذا وجد في الأمة الميتة من تدفعه شهامة للأخذ بيدها والنهوض بها فعلية أولا: أن يبت فيها الحياة وهي العلم، أي علمها بأن حالتها سيئة وأن^(١) بالإمكان تبديلها بخير منها، فإذا هي علمت بتدني فيها الشعور بالأم الاستبداد. ثم يترقى هذا الشعور بطبقة من الآحاد إلى العشرات، إلى المئات . . . حتى يشمل أكبر الأمة وينتهي بالتحمس ويبلغ بلسان حالها إلى منزلة قول الحكيم المعري:

إذا لم تقم بالعدل فبنا حكومة فنحسن على تغييرها قُدرَاء

وهكذا يتولد فكر الأمة في واد ظاهر الحكمة يسير كالسيل. لا يرجع حتى يبلغ مستها.

ثم إن الأمم الميتة لا يتدر فيها ذور الشهامة، إنما الأسف أن يتدر فيها من يهتدى في أول نشأته إلى الطريق الذي به يحصل على المكانة التي تمكنه في مستقبله من نفوذ رأيه في قومه. وإنني أتبع فكر الناشئة العزيزة على أن من يرى منهم في نفسه استعدادا للسجد الحقيقي فيلجأ على الوصايا الآتية البان:

١- أن يجهد في ترقية معارفه مطلقا، لا سيما في العلوم النافعة الاجتماعية كالحقوق والسياسة والاقتصاد والفلسفة العقلية، وتاريخ قومه الجغرافيا والطبى والسياسى، والإدارة الداخلية والإدارة الحربية، فيكتسب من أصول وفروع هذه الفنون ما يمكنه إحرازه بالتلقى. وإن تعذر فيالمطالعة مع التدقيق.

٢- أن يتقن أحد العلوم التي تكسبه في قومه موقعا محترما وعلميا مخصصا كعلم الدين والحقوق، أو الإنشاء، أو الطب.

٣- أن يحافظ على آداب وعادات قومه غاية المحافظة. ولو أن فيها بعض أشياء سيئة.

٤- أن يقلل اختلاطه مع الناس، حتى مع زفقائه في المدرسة، وذلك حفاظا لوقار وتحفظا من الارتباط القوى مع أحد كيلا يسقط تبعا لسيطرة صاحب له

(١) في الأصل التفتح؛ وإنما، ولا وجود لهذه الكلمة في الطبعة الأولى.

٥- أن يتجنب كلياً مصاحبة المقنوت عند الناس ، لا سيما الحكام ، ولو كان ذلك المقت بعير حق .

٦- أن يجهد ما أمكنه في كتم مزيته العلمية على الذين هم دونه في ذلك العلم ، لأجل أن يأمن غوائل حسدهم . إنما عليه أن يظهر مزيته لبعض من هم فوقه بدرجات كثيرة .

٧- أن يتخير له بعض من ينتمى إليه من الطبقة العليا ، بشرط : ألا يكثر التردد عليه ، ولا يشاركه في شؤونه ، ولا يظهر له الحاجة ، ويتكتم في نسبه إليه .

٨- أن يحرص على الإقلال من بيان آرائه ، وألا تؤخذ^(١) عليه تبعة رأى يراه أو خبير يرويه .

٩- أن يحرص على أن يُعرف بحسن الأخلاق ، لا سيما الصدق والأمانة والثبات على المبادئ .

١٠- أن يظهر الشفقة على الضعفاء ، والغيرة على الدين ، والعلاقة بالوطن .

١١- أن يتباعد ما أمكنه من مقاربة المستبد وأعوانه إلا بمقدار ما يأمن به فطائع شرهم إذا كان معروفاً بذلك .

فمن يبلغ من الثلاثين فما فوق حائزاً على الصفات المذكورة ، يكون قد أعد نفسه على أكمل وجه لإحراز ثقة قومه عندما يريد في برهة قليلة ، وبهذه الثقة يفعل ما لا تقوى عليه الجيوش والكنوز . وما ينقصه من هذه الصفات ينقص من مكانته ، ولكن قد يستغنى بمزيد كمال بعضها عن فقدان بعضها الآخر أو نقصه . كما أن الصفات الأخلاقية قد تكفي في بعض الظروف عن الصفات العلمية كلها ولا عكس . وإذا كان المتصدي للإرشاد السياسي فاقبث الثقة فقدانا أصلياً أو طارئاً ، يمكنه أن يستعمل غيره ممن تنقصه الجسارة والهمة والصفات العلمية .

والخلاصة أن الراغب في نهضة قومه ، عليه أن يهيئ نفسه ويزين استعداداً ، ثم يعزم متوكلاً على الله في خلق النجاح .

(١) في الأصل النصح : يؤخذ ، ولا وجود لهذه العبارة في الطبعة الأولى

ومبنى قاعدة أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة، إنما يقاوم بالحكمة والتدرج هو :

أن الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقى الأمة في الإدراك والإحساس ، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحميس ، ثم إن اقتناع الفكر العام وإذعائه إلى غير مألوفه ، لا يتأتى إلا في زمن طويل ، لأن العوام مهتما ترقوا في الإدراك لا يسمحون باستبدال العافية بالشعريرة إلا بعد التروى المديد ، وربما كانوا معذورين في عدم الوثوق والمشاركة لأنهم ألفوا ألا يتوقعوا من الرؤساء والدعاة إلا الغش والخذاع غالبا ، ولهذا كثيرا ما يحب الأسراء المستبد الأعظم إذا كان يقهر معهم بالنسبة للرؤساء والأشراف ، وكثيرا ما ينتقم الأسراء من الأعوان فقط ولا يمسون المستبد بسوء ، لأنهم يرون ظالمهم مباشرة هم الأعوان دون المستبد ، وكم أحرقوا من عاصمة لأجل محض الشفوى بإضرار أولئك الأعوان .

ثم إن الاستبداد محض بأنواع القوات التي فيها قوة الإرهاب بالعظمة وقوة الجند ، لا سيما إذا كان الجند غريب الجنس ، وقوة المال ، وقوة الألفة على النفسوة ، وقوة رجال الدين ، وقوة أهل الثروات ، وقوة الانتصار من الأجانب ، فهذه القوات تجعل الاستبداد كالسيف لا يقابل بعضا الفكر العام الذي هو في أول نشأته يكون أشبه بغوغاء ، ومن طبع الفكر العام أنه إذا فار في سنة يغور في سنة ، وإذا فار في يوم يغور في يوم ، بناء عليه يلزم لمقاومة تلك القوات الهائلة مقابلتها بما يشعل الثبات والعناد المصحوبان بالحزم والإقدام .

الاستبداد لا ينبغي أن يقاوم بالعنف ، كي لا تكون فتنة تحصد الناس حصدا ، نعم ، الاستبداد قد يبلغ من الشدة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجارا طبيعيا ، فإذا كان في الأمة عقلاء يتباعدون عنها ابتداء ، حتى إذا سكنت ثورتها نوعا وقضت وظيفتها في حصد المنافيين ، حينئذ يستعملون الحكمة في توجيه الأفكار وتخوئ تأسيس العدالة ، وخير ما تؤسس يكون بإقامة حكومة لا عهد لرجالها بالاستبداد ولا علاقة لهم بالفتنة .

العوام لا يثور غضبهم على المستبد غالبا إلا عقب أحوال مخصوصة مبهيجة فورية . منها :

١ - عقب مشهد دموي مؤلم يوقعه المستبد على مظلوم يريد الانتقام لناموسه .

٢ - عقب حرب يخرج منها المستبد مغلوبا ، ولا يتمكن من إصااق عار القلب بخيانة القواد .

٣ - عقب تظاهر المستبد بإهانة الذين إهانة مصحوبة باستهزاء يستلزم حدة العوام .

٤ - عقب تضيق شديد عام مقاصاة مال كثير لا يتيسر إعطاؤه حتى على أواسط الناس .

٥ - في حالة مجاعة أو مصيبة عامة لا يرى الناس فيها مواساة ظاهرة من المستد .

٦ - عقب عمل للمستبد يستفز الغضب الفوري ، كتعرضه لتأموس العرض ، أو حرمة الجنائز في الشرق ، وتحقيره القانون أو الشرف الموروث في الغرب .

٧ - عقب حادث تضيق يوجب تظاهر قسم كبير من النساء في الاستنجارة والاستنصار .

٨ - عقب ظهور مؤالة شديدة من المستبد لمن تعتبره الأمة عدوا لشرفها .

إلى غير ذلك من الأمور المماثلة لهذه الأحوال التي عندها يموج الناس في الشوارع والساحات ، وتعالى أصواتهم الغضاء ، وترفع قتلح عتال السماء ، بتأذون الحق الحق ، الانتصار للحق ، الموت أو بالمرح الحق .

المستبد مهما كان غبيا لا تحفى عليه تلك المرائق ، ومهما كان غبيا لا يغفل عن اقتائها ، كما أن هذه الأمور يعرفها أعوانه ووزراؤه .

فإذا وجد منهم بعض يريدون له البهلكة يهورونه على الوقوع في إحداها ، ويلصقون لها به خلافا لعاداتهم في إبعادها عنه بالتسوية على الناس . ولهذا يقال : إن رئيس وزراء المستبد ، أو رئيس قواده ، أو رئيس الدين عنده ، هم أقدر الناس على الإيقاع به ، وهو يداريهم تحذرا من ذلك . وإذا أراد إسقاط أحدهم فلا يوقعه إلا بحة .

لشبرى الخواطر على الاستبداد طرائق شتى يسلكونها بالنسر والبطء ، يستقرون تحت سناار الدين ، فيستنون غاية الثورة من بذرة أو بذرات يسقونها بدموعهم في الخانات ، وكم يلهون المستبد بسوقه إلى الاشتغال بالفسوق والشبهات ، وكم

يغزروونه برضاء الأمة عته، ويجسروونه على مزيد التشديد، وكنهم يحملونه على إساءة التدبير، ويكتمونه الرشد، وكنهم يشوشون فكره بإرباكه مع جيرانه وأقرانه، يفعلون ذلك وأمثاله لأجل غاية واحدة، هي إيعاده عن الانتباه إلى سد الطريق التي فيها يسلكون. أما أعوانه، فلا وسيلة لإغفالهم عن إيقافه غير تحريك أطماعهم المالية مع تركهم ينهبون ما شاؤوا أن ينهبوا.

ومبنى قاعدة أنه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهينة ماذا يستبدل بالاستبداد هو:

أن معرفة الغاية شرط طبيعي للإقدام على كل عمل، كما أن معرفة الغاية لا تفيد شيئا إذا جهل الطريق الموصل إليها، والمعرفة الإيجابية في هذا الباب لا تكفي مطلقا، بل لا بد من تعيين المطلب والخطة تعيينا واضحا موافقا لرأي الكل، أو لرأي الأكثرية التي هي فوق ثلاثة الأرباع عددا أو قوة بأس، وإلا فلا يتم الأمر، حيث إذا كانت الغاية مبهممة نوعا يكون الإقدام ناقصا نوعا، وإذا كانت مجهولة بالكلية عند قسم من الناس أو مخالفة لرأيهم فهو لا يتضمنون إلى المستبد فتكون فتنة شعواء، وإذا كانوا يبلغون مقدار الثلث فقط، تكون حينئذ الغلبة في جانب المستبد مطلقا.

ثم إذا كانت الغاية مبهممة ولم يكن السير في سبيل معروف، ويوشك أن يقع الخلاف في أثناء الطريق، فيفسد العمل أيضا وينقلب إلى انتقام وفتن، ولذلك يجب تعيين الغاية بوضوح وإخلاص وإشهارها بين الكافة، والسعي في إيمانهم واستحصال رضائهم بها مما أمكن ذلك. بل الأولى حمل العوام على السداد بها وطلبها من عند أنفسهم. وهذا سبب عدم نجاح الإنعام على ومن وليه من أئمة آل البيت رضي الله عنهم. ولعل ذلك كان منهم لا عن غفلة، بل عن مقتضى ذلك الزمان من ضعفية المواضلات وفقدان المؤسسات المنتظمة والنشريات المطبوعة إذ ذاك.

والمراد أن من الضروري تقرير شكل الحكومة التي يراد ويمكن أن تستبدل بالاستبداد، وليس هذا بالأمر الهين الذي تكفيه فكرة ساعات، أو فطنة احاد، وليس هو بأسهل من ترتيب المقاومة والغلبة. وهذا الاستعداد الفكري النظري

لا يجوز أن يكون مقصودا على الخواص . بل لا بد من تعميمه وعلى حسب الإمكان ليكون بعيدا عن الغايات ومعصودا بقبول الرأى العام .

وخلاصة البحث : أنه يلزم أولا تنبيه حس الأمة بالآلام الاستبداد ، ثم يلزم حملها على البحث فى القواعد الأساسية السياسية المناسبة لها ، بحيث يشغل ذلك أفكار كل طبقاتها ، والأولى أن يبقى ذلك تحت مخض العقول سنين بل عشرات السنين حتى ينضج تماما ، وحتى يحصل ظهور التلهف الحقيقى على نوال الحرية فى الطبقات العليا ، والتمنى فى الطبقات السفلى ، والحذر كل الحذر من أن يشعر المستبد بالخطر ، فيأخذ بالتحذر الشديد والتكيد بالمجاهدين ، فيكثر الضجيج ، فيزيغ المستبد ويتكالب ، فحيثذ إما أن تغتنم الفرصة دولة أخرى فتستولى على البلاد ، وتحدد الأسر على العباد بقليل من التعب ، فتدخل الأمة فى دور آخر من الرق المنحوس ، وهذا نصيب أكثر الأمم الشرقية فى القرون الأخيرة ، وإما أن يساعد الخط بعدم وجود طامع أجنبى ، وتكون الأمة قد تأهلت للقيام بأن تحكم نفسها بنفسها ، وفى هذه الحال يمكن لعقلاء الأمة أن يكلفوا المستبد ذاته لترك أصول الاستبداد ، واتباع القانون الأساسى الذى تطلبه الأمة . والمستبد الخائر القوى لا يسعه عند ذلك إلا الإجابة طوعا ، وهذا أفضل ما يصادف . وإن أصبر المستبد على القوة ، قضوا بالزوال على دولته ، وأصبح كل منهم راعيا وكل منهم مسئولا عن رعيته ، وأضحوا آمنين ، لا يطمع فيهم طامع ، ولا يغلبون عن قلة ، كما هو شأن كل الأمم التى تحيا حياة كاملة حقيقية ، بناء عليه فليتيسر العقلاء ، وليتق الله المغررون ، وليعلم أن الأمر صعب ، ولكن تصور الصعوبة لا يستلزم القنوط ، بل يثير همة الرجل الأشم .

ونتيجة البحث : أن الله جلت حكمته قد جعل الأمم مسئولة عن أعمال من تحكمه عليها ، وهذا حق . فإذا لم تحسن أمة سياسة نفسها أذلها الله لأمة أخرى تحكمها ، كما تفعل الشرائع بإقامة القيم على القاصر أو السفيفه ، وهذه حكمه . ومتى بلغت أمة رشدها ، وعرفت للحرية قدرها ، استرجعت عزها ، وهذا عدل .

وهكذا لا يظلم ربك أحدا، إنما هو الإنسان يظلم نفسه، كما لا يذل الله قط أمة عن قلة، إنما هو الجهل يسبب كل علة.

وإني أختم كتابي هذا بخاتمة بشرى، وذلك أن بواسط العلم وما بلغ إليه، تدل على أن يوم الله قريب. ذلك اليوم الذى يقل فيه التفاوت فى العلم وما يفيد من القوة، وعندئذ تنكافأ القوات بين البشر، فتنحل السلطة، ويرتفع التغالب، فيسود بين الناس العدل والتوادل، فيعيشون بشرا لا شعوبا، وشركات لا دولا. وحينئذ يعلمون ما معنى الحياة الطيبة: هل هى حياة الجسم وحصر الهمة فى خدمته؟ أم هى حياة الروح وغداؤها الفضيلة؟! ويومئذ يتسنى للإنسان أن يعيش كأنه عالم مستقل خالد، كأنه نجم مختص فى شأنه، مشترك فى النظام، كأنه ملك وظيفته تنفيذ أوامر الرحمن الملهمة للوجدان.

تم الكتاب بعونه تعالى.



رقم الإيداع ٢٠٠٧ / ١٠٤٠١

الترقيم الدولي 9 - 2047 - 09 - 977 - 978 ISBN

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

من أهم ما كتب عن الاستبداد في عالمنا العربي!

عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٨ - ١٩٠٢) مفكر ومصلح ولد في حلب، بدأ حياته بالعمل في الصحافة داعياً للإصلاح والقومية العربية، فتعرض لكثير من المتاعب من قبل الدولة العثمانية، فسجن عدة مرات، وغاش شريداً يطوف العالم العربي داعياً إلى الحرية السياسية، والعدالة الاجتماعية، وتجديد الدين. له كتابان مشهوران يعتبر «طبائع الاستبداد» ومصارع الاستعباد، أهمهما، ويقول فيه:

- لقد تمحص عندي أن أصل الداء هو: الاستبداد السياسي.. ودواؤه هو: الشورى الدستورية.
- من أقيح أنواع الاستبداد: استبداد الجهل على العلم.. واستبداد النفس على العقل!
- خلق الله الإنسان حراً، فألده العقل.. فكفر.. وأبى إلا أن يكون عبداً، فألده الجهل!!
- إن المستبد فرد عاجز، لا حول له ولا قوة إلا بأعوانه أعداء العدل وأنصار الجور.
- تراكم الثروات المفرطة، مولد للاستبداد، ومضر بأخلاق الأفراد.
- الاستبداد أصل لكل فساد.

